
معتز
عرفان
الإيروسية والثاناتوسية
دراسة نفسية فلسفية فنية
الحياة والموت .. الجنس والعاطفة
دار عرفان للنشر

معتز عرفان

الإيروسية والثاناتوسية

دار عرفان للنشر

الإيروسية والثاناتوسية

مقدمة

في الميثولوجيا الإغريقية، يُحكي أن زيوس، كبير الآلهة وسيد الأوليمب، كان يتخذ أشكالا عدة لينال من الجميلات مراده، ويحصل على رغائبه العديدة، والتي من بينها زيادة النسل والارتقاء به. وقد تنكر في إحدى المرات على هيئة بجعة مجامعا زوجة ملك سبارتا "ليدا"، ونجم عن هذه المضاجعة نسل ممتد، توجته جميلة طروادة "هيلين"، المعروفة بدورها المحوري في إلياذة هوميروس. وقد رصد الكثير من الفنانين النزوات المختلفة له بصورة مستمرة ومميزة معبرين عن شراهته الجنسية الجلية والغريبة. وقد يمثل المشهد السابق أكثرها تأثيرا وشهرة، وهو ما تم رصده ببراعة واضحة من قبل الفنان الانطباعي "بول سيزان" في لوحته الفخمة "ليدا والبجعة". وبالرغم من ولع زيوس بالنساء، إلا إنه لم يكن إلها للحب أو الجنس بل كان معروفا بسيطرته على السماء والبرق والرعد، بينما صُنف إيروس بكونه الرمز الصريح لهما، وقد عُرف بحبه لسايكي، الممثلة للروح عند الإغريق. إن إيروس إشارة صريحة للحب والجنس والقوي المحركة، وتشير سايكي إلي الروح والنفس، وبالتحامهما معا ينتج الوجود، وبمواكبتهما لبعضهما البعض تكتمل

مفردات الحراك وتُضخ الدماء في العروق، وبواسطة إيروس تنتعش سايكي وتعود من جديد إلى الحياة. تعبر الطاقة الإيروسية عن الحياة، وتتجلي صورها من خلال الجنس المدعم لعملية التكاثر، وما يصاحبها من تواصل اجتماعي ورغبة في النجاة وتوفير للاحتياجات الضرورية لذلك، ويتمثل النقيض في ثاناتوس، المعبر عن الموت والرغبة في الفناء. وإذا كان الهدف من الحياة الوصول إلى النهاية المتمثلة في الموت وفقا لآراء البعض، فحينها من الممكن أن ننظر إلى القوي الإيروسية على أنها ملطف حيوي لرغبة الموت الكامنة في اللاوعي، وداعم رئيسي لفكرة الاستمرارية والبناء قبل الرحيل وبلوغ الفناء. وقد تتجلي بيئة ثاناتوس عندما نتأمل السلوك العدواني عند الكثيرين أو الانخراط في ممارسات خطرة أو الانغماس في معاقرة الخمور والمخدرات أو الرغبة في الفناء هروبا من صدمة نفسية أو صراع داخلي عنيف، وحينها يمثل الموت جزءا رئيسيا من فلسفة الخلاص، وقد يمثل الجنس جزءا منها بشكل ما وفقا للبعض. لكننا في هذه الحالة، نجد أنفسنا في بيئة مفعمة بالمفارقات والتناقضات، فهل يمثل الجنس نقيضا صريحا للموت أم يكملان بعضهما البعض؟ في الحقيقة، تتمثل النظرة الأكثر واقعية ومنطقية في

التسليم بمعارضتهما لبعضهما البعض، لكن الجنس في نفس الوقت يمثل موتا صغيرا وفقا للفرنسيين، حيث يشتركان معا في فكرة الفقدان، ويتضافران بقوة من خلال مبدأ التقبل، فالإنسان يتقبل حالة الفقدان والارتخاء المصاحبة للذروة الجنسية كما يتقبل موته وفقدانه الحتمي لنفسه. وبالرغم من ذلك، يمثل الجنس القوة المحركة للبشر والقادرة على ضخ الدماء في عروقهم، ودفعهم إلى الأمام، وتتصل هذه الحالة بالليبيدو وإنعاش الخيال الجنسي للكائنات، وقد يؤدي الليبيدو إلى إقحام الكائن البشري في حالة من النشوة على الصعيدين النظري والتطبيقي بصورة غريبة للدرجة التي تتجلي فيها طاقة إيروس عبر المشهد العام، لتبرهن على ارتباط النشاط البشري بالغريزة الجنسية وقيام حاجاته عليها بشكل مباشر. ولا تعني كلماتي غياب المفهوم العاطفي عن الساحة، لأن العاطفة تمثل الغلاف الرسمي والمقبول للسلوك الجنسي الحيواني، وبدونه تظهر البيئة الكلية قدرا كبيرا من الخلل والاختلال، وتتصاعد رائحة البهيمية المبهمة والمرتبطة بالجنس بصورة مباشرة. وقد تمثل التعقيدات المصاحبة للعواطف البشرية عائقا للكثيرين، وحينها يلجئون إلى البعد الأقل تعقيدا والمتمثل في الجنس، وهو ما نشهده في

عصرنا الحالي المروج للجنس ضمن إطار جامد ومُفرغ من العواطف والروحانيات. وإذا كان الجنس المحرك للكائنات الحية بوجه عام، وإذا كان الحراك البشري مرتبطا بتوفير البيئة الآمنة والمناسبة للتوظيف الجنسي والعاطفي، فمن الممكن حينها أن نعتبر هذه البيئة نوعا من التأخير والتلطيف قدر المستطاع قبل أن تُفعل قوي ثاناتوس التي لا مناص منها، ولا حل لها سوي التقبل والتسليم.

-المؤلف

-القسم الأول

الغريزة الجنسية والعاطفة البشرية (الحياة)

الجنس في الإطار العلمي

تخبرنا الدراسة الفينومينولوجية للنشاط البشري عن تزايد أعداد البشر بشكل واضح علي مدار السنين، ومع كل نفس نتنفسه وكل حركة نقوم بها وكل تفاعل كيميائي يلاعب أجسادنا، نشعر بالهدف الحقيقي للوجود البشري، وتتضح الصورة، ويُزال عنها الغيوم والضباب. يتمثل الهدف الرئيسي للوجود البشري في التكاثر، والحصول علي أكبر عدد ممكن من البشر. ولا تقتصر عملية التكاثر علي الإنسان فحسب لكنها تمتد لتشمل كافة الكائنات الموجودة علي سطح الكوكب. تعتمد هذه العملية علي التوظيف الفعلي للغريزة الجنسية، والتي يعتبرها الكثير من العلماء بمثابة المحرك الرئيسي للحياة البشرية. لا تأخذ جزءاً كبيراً من ذهن الإنسان الطبيعي أو المعياري، لكنها قد تدخل مع البعض في حالة من الهوس، والجنون بصورة واضحة، ومؤثرة. وبالرغم من ذلك، يجمع الكثير من العلماء علي الوجود الطاغي للغريزة الجنسية ضمن البنية التحتية للعقل اللاواعي، ولا يتوقف الأمر عند هذه النقطة فحسب بل يمتد ليشمل عملية البرمجة المسيطرة علي العقل البشري بشكل كامل.
يعطي العلم الحديث الغريزة الجنسية قدراً كبيراً من الأهمية كما يعمل علي إدراجها ضمن الاحتياجات الفسيولوجية الأساسية للكائن البشري.

ومن الممكن أن نتعرض للموضوع بصورة أوضح من خلال هرم ماسلو للاحتياجات الأساسية للإنسان، حيث يضع الرجل الاحتياجات الفسيولوجية كقاعدة رئيسية للهرم، ويدرج الغريزة الجنسية كعنصر أساسي ضمن العناصر المشكلة للجزء الفسيولوجي المتمثل في القاعدة بصورة واضحة، وتتمثل هذه الاحتياجات في التنفس، والطعام، والماء، والنوم، والتوازن، والإخراج، والجنس بصورة مؤكدة. ينظر الألماني شوبنهاور إلي الغريزة الجنسية علي أنها ميراث إنساني، ويعاملها سيجموند فرويد باعتبارها المحرك الرئيسي للبشر، وقد أكد علي ذلك باستمرار من خلال أطروحاته، ونظرياته المتعددة. وفي نفس الوقت، يري بعض العلماء أن البشر لا يمتلكون أي غريزة جنسية علي الإطلاق، لكنهم قد تعلموها من خلال التجربة الاجتماعية، والاندماج مع بعضهم البعض، لكنه رأي ضعيف بكل تأكيد حيث يعمد الأغلبية إلي الفكر المماثل لفكر فرويد، دون المبالغة التي قد تطول بعضاً من أعماله الخاصة بالجنس. يري شوبنهاور أن الغريزة الجنسية هي أكبر الصور المؤكدة للحياة البشرية، وأكثرها اهتماماً من قبل الإنسان والحيوان، كما يوضح أن المبالغة في الممارسات الجنسية أمر لا يتمثل سوي في الفاسقين، بينما

يملأ الأتقياء عقولهم بالخيالات، والأحلام. لكنه يري في نفس الوقت أن الغريزة الجنسية حلم أو وهم، حيث يعتقد المرء أنه ينعم بالسلام، والسعادة، والتمتع من خلال ممارستها بالصورة السوية أو غير السوية، لكنه في حقيقة الأمر مجرد ساذج مُضلل يعمل بشكل تلقائي علي إرضاء احتياجات، وأهداف الفصيلة البشرية المتمثلة بصورة أوسع في التكاثر، والتزايد. يري نيتشه أن الغريزة الجنسية تمثل قوة محورية تعمل باستمرار ضمن البيئة الروحية للإنسان وأنها تتجاوز مرحلة الجسد. وقد يعبر فرويد عن هذه النقطة بشكل مختلف من خلال مصطلحاته المتمثلة في اللاوعي أو العقل اللاواعي، والذي يؤثر باستمرار علي قرارات العقل الواعي دون شعور منه. في الحقيقة، كثيراً ما أرجع فرويد الكثير من الأمراض النفسية، والاضطرابات السيكولوجية إلي كبت الغريزة الجنسية، حيث أرجع العديد من حالات الهستيريا، والعصاب، وقضم الأظافر التي تصيب الإناث بشكل أوسع إلي الكبت الجنسي، ولهذا اتُهم من قبل الكثيرين بالهوس الجنسي فيما بعد. يري الرجل أن البشر يتحركون، ويتخالطون، ويتعارفون بدافع غريزي جنسي خالص يكمن في عقولهم اللاواعية كجزء من البرمجة الذهنية المُعتمدة من قبل المخ

البشري. كما ينظر لعملية الإرضاء الجنسي علي أنها عملية مجزئة ومقطعة تتكامل وتتكاتف مفرداتها من خلال التجارب الفردية المختلفة والمتعددة. لكنه يضع الاحتياجات البيولوجية في إطار منفصل عن فكرة الغريزة نفسها، حيث يعتبرها قوة محركة للإنسان بشكل رئيسي، لكنها لا تهدف إلي شيء محدد أو معين غير الإرضاء الجسدي المؤقت، والذي لا يمكن تحقيقه بشكل كامل عبر تجربة موحدة لكنه يتجزأ بشكل مستمر عبر العديد من التجارب الفردية، ويؤكد علي أن عملية التكاثر تمثل هدفاً من أهداف الغريزة المتعددة؛ حيث يعبر في كتابه "ثلاثة مباحث في الجنس" عن الأهداف الأخرى للغريزة الجنسية المتمثلة في التمتع بصوره المختلفة، ويوضح أنها تعمل بشكل متساو بين جميع المنخرطين في الأنشطة الجنسية دون تفرقة أو تقيد بنشاط محدد، لكنها تضفي المساواة الفعلية علي كافة الأنشطة الجنسية الممكنة، والمتاحة. يتعرف الطفل خلال مراحله الأولي علي المناطق الإيروجينيسية "مناطق الإثارة الجنسية"، والتي من شأنها أن تعمل علي تحقيق الإرضاء الغريزي له فيما بعد. كما يعمد إلي الفنتازيات، والخيالات، والأفكار الثقافية المنتشرة بمجتمعه، والتي تتضمن التكاثر أو الشذوذ علي سبيل المثال، حيث تمثل

البيئة ركناً أساسياً في عملية تحديد الميول الخاصة بالفرد؛ لأنها تعمل علي تشكيل هويته، وتحديد بنيته الفكرية، والذهنية. ينظر كارل جوستاف يونج إلي الغريزة الجنسية علي أنها طاقة روحية أو نفسية بشكل عام، وكثيراً ما يربطها "بالسيكي" الممثلة للنفس، والروح. كما ينظر بعض العلماء إليها علي أنها طاقة محفزة إذا أُرضيت بشكل معتدل، بل من الممكن أن تعمل بشكل أفضل إذا تعرضت للكبت أو التدرج ثم اتُبعت بالتحرر المفاجئ. من الضروري أيضاً أن نؤكد علي الفرق الواسع بين الإنسان، والحيوان فيما يخص عملية التحكم المتعلقة بالممارسة الجنسية، حيث ينخرط الحيوان في ممارسة النشاط الجنسي دون قدرة علي كبح جماحه بينما يوفر العقل البشري للإنسان القدرة علي التحكم، وكبح الجماح. بالطبع، تحيط البيئة الفسيولوجية والسيكولوجية بعملية الإشباع الجنسي، وتؤثر علي الفرد بشكل محوري وفعال. فحينما نتحدث عن البيئة الفسيولوجية الخاصة بالذكر والأنثى فيما يخص النشاط الجنسي بشكل عام، فلابد أن نتطرق إلي التستوستيرون الممثل للمحفز الجنسي الأول للذكر، والذي يعمل علي تصعيد درجة الإثارة الجنسية عند الذكور كما يشترك في الكثير من الأمور الأخري الخاصة بعملية التطور الجنسي،

والنمو، والممارسة الجنسية بشكل عام. أما بالنسبة للأنثى، فلابد أن نشير إلي الإستروجين، والبروجسترون، والتستوستيرون بصورة رئيسية، لكن بشكل أقل مقارنةً بالذكور. كما أننا لابد أن نوضح الحقيقة العلمية المتعلقة بهذه النقطة، والمتمثلة في تصاعد الليبيدو عند الأنثي أثناء عملية تكوين البويضة أو قبل عملية التكوين. ومن الممكن أيضاً أن نلاحظ تذبذبات متعددة فيما يخص الإطار الكلي لهذه العملية، والذي قد يشمله الاختلاف بين الإناث بشكل عام. أثناء الممارسة الجنسية والأورجازم، ترتفع معدلات الإندورفينز، والأوكسيتوسن في أجساد الذكور والإناث، لتسود أنماط الحب، والرعاية، والتبادل العاطفي بصوره المتعددة، ويرتبط الأمر بالتستوستيرون، والإستروجين، والدوبامين المُفرز بكثرة بشكل وثيق. بالنسبة للجزء النفسي، تؤثر الحياة الجنسية علي سيكولوجية الذكر، والأنثي بشكل واضح وفعال، ويبدأ السلوك الجنسي في اتخاذ المسار النشط والمؤثر منذ لحظة البلوغ عند الجنسين، ليخلق قدراً كبيراً من الاضطراب والتوتر. تخرج هذه التوترات في أشكال مختلفة ومتعددة، وتتنوع بين الأشخاص وفقاً لمنظوماتهم الفكرية، والثقافية، والدينية المختلفة، والتي قد تخلق قدراً من الصراع

الداخلي عند بعضهم كنتيجة حتمية لمخالفة هذه المنظومات المنظمة لعملية التوظيف الجنسي، والتي يقع في قمتها الدين بكل تأكيد. كثيراً ما يُصاب المراهقون بحالات من الاكتئاب والتوتر كنتيجة للتأثيرات الهرمونية المختلفة، والمضطربة، وهو ما ينتشر بين الإناث بصورة أكبر، وأوسع مقارنةً بالذكور، خاصةً أثناء فترة الدورة الشهرية عندهن. في نهاية هذا الفصل، أحب أن أتطرق إلي الجنس ضمن الإطار البعيد عن التقليدية، والمتمثل في الخطل الجنسي (البارافيليا)، حيث تندرج الكثير من الممارسات الجنسية، والسلوكيات البشرية المختلة تحت بند البارافيليا، وتتنوع صورها، وتختلف من بيئة لأخري؛ فما نعتبره هتاكاً في مجتمع ما قد يندرج تحت بند السلوك الطبيعي، والمألوف في مجتمع آخر.

يتمثل الهتاك "الإكسبيشينزم" في الوساوس، والدوافع الملحة، والتي من شأنها أن تجبر الشخص علي التعري التام في مواجهة شخص غريب عنه، ويتم هذا السلوك بشكل مرضي، وغريب ليرضي دوافع "الإكسبيشينست" الداخلية، والغريبة بالنسبة للسلوك التقليدي المعتاد من قبل البشر. قد يُستخدم مصطلح "إكسبيشينزم" بشكل أوسع حينما يشمل أي درجة من التعري بحيث لا يقتصر علي العملية الكلية فحسب

بل يأخذ العملية الجزئية أيضاً في الحسبان. بالنسبة "للبيدوفيليا"، فإنها تتمثل في الانجذاب الجنسي من قبل الشخص البالغ تجاه الأطفال أما "الساديزم"، فإنه يمثل حصول الشخص علي المتعة الجنسية من خلال إيذائه لشخص ما وتعذيبه، وإذا كان الشخص مستمتعاً بذلك فحينها يندرج تحت بند "المازوكيزم"، والذي يمثل الاستمتاع الجنسي من خلال التعرض للألم والإيذاء. يُستمد مصطلح "ساديزم" أو "السادية" من اسم الروائي الفرنسي ماركيز دي ساد، بينما يُستمد مصطلح "مازوكيزم" أو "المازوخية" من اسم الروائي النمساوي مازوخ، ويكمل السلوكان بعضهما البعض إذا كان المشاركين بهذه السلوكيات "بارافيلياك" بطبيعة الحال. يتمثل "الفوياريزم" في الحصول علي المتعة من خلال متابعة النشاط الجنسي لعدد من البشر بشكل سري، والانغماس والانهماك في ممارسة ذلك، وهو ما نطلق عليه بالعامية "البصبصة"، إذا أردنا أن نضع الصورة في إطار أضيق للتبسيط والتوضيح، وتناقش رواية "الجحيم" لهنري باربوس هذا السلوك بشكل متميز، وتعرضه بشكل استثنائي. بالنسبة "للكاندويلزم"، فإنه يمثل تمتع الذكر بتعريض شريكته الأنثي إلي أشخاص آخرين، ويتماشي هذا السلوك الغريب مع "الفوياريزم"،

و"الإكسبيشينزم" بكل تأكيد، وقد عبر عدد من الفنانين عن هذا السياق من خلال لوحاتهم الفنية مثل لوحة "الدوك مبرزاً حبيبته" بواسطة الشهير يوجين ديلاكرو. تمثل "النيكروفيليا" انجذاباً جنسياً إلي الجثث، وقد عبر الفنان الإيطالي بيترو باجيتا عن هذا السلوك من خلال لوحته المغمورة التي تحمل اسم "الكراهية". أما بالنسبة "للترانسفيستزم"، فإنه يمثل الحصول علي الإثارة الجنسية من خلال ارتداء أو رؤية الملابس المتعلقة بالجنس الآخر، وقد شخص البعض المخرج الأمريكي إد وود بهذا الخلل الغريب حيث أنه كان مغرماً بارتداء ملابس النساء. تمثل "اللاكتوفيليا" الحصول علي الإثارة الجنسية من خلال الرضاعة، وتمثل "الميزوفيليا" الحصول عليها من خلال إحاطة الشريك الآخر بالقذارة، بينما تمثل "النارا‌توفيليا" الحصول علي الإثارة من خلال تبادل الكلمات الفاحشة والقصص الجنسية. تتعدد الأنواع الخاصة "بالبارافيليا"، وتتشكل بين الأفراد المصابين بذلك، وتتطور هذه الحالات خلال فترة المراهقة لتصبح واضحةً، ومؤثرةً في حياة الشخص مع الكبر.

لكنها تتضمن في نفس الوقت بعض السلوكيات المُمارسة من قبل معظم البشر ضمن الإطار العادي والدائم، دون التعرض لأي أضرار.

فاللاكتوفيليا والناراتوفيليا بعيدتان كل البعد عن إلحاق الضرر بالأفراد مقارنةً بالسادية والمازوخية المتسببتين في الكثير من الأضرار علي المدى البعيد. وغالباً ما تعود هذه الحالات (خاصةً الدرجات العليا والمؤذية منها) إلي أسباب يصعب التحكم بها مثل نشاط التستوستيرون، والوساوس القهرية، والاستغلال الجنسي أثناء فترة الطفولة الخاصة بالفرد.

الجنس في الإطار الديني

تُعتبر الغريزة الجنسية أداةً من أدوات الاختبار الإلهية، وركناً أساسياً من أركان العلاقة بين العبد والإله، حيث ينظر الدين إلي منظومة الزواج علي أنها الطريق الوحيد والشرعي لتوظيف الغريزة الجنسية، ويدعو البشر لإرضاء غرائزهم ضمن الإطار العاطفي من خلال عملية الزواج المُعلنة والشرعية، حيث يقول الله تعالي في سورة الروم: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)". كما يصف الممارسات الخارجة عن هذه المنظومة بالفاسقة والفاجرة، ويدرجها تحت مسمي "الزنا". تتطرق النصوص الدينية إلي الغريزة الجنسية عبر عدة محاور أساسية وهامة تتمثل فيما يلي:-

التعرض لطبيعة النشاط الجنسي عند البشر

يقول النبي (ص): "إِنَّ اللهَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُه". وبصورة أخري، "كُلُّ ابْنِ آدَمَ لَهُ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَا، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزِنَا الرِّجْلَيْنِ الْمَشْيُ، وَزِنَا الْفَمِ الْقُبَلُ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ

الْفَرْجُ". ولا يُؤخذ هذا الحديث كمبرر للانخراط في ممارسة مقدمات الزنا (الزنا المجازي) أو الزنا نفسه (الزنا الحقيقي) بل يُؤخذ كوسيلة للإدراك، والمعرفة، والابتعاد عن الزنا، وحفظ النفس.

الحث علي التوظيف الغريزي ضمن منظومة الزواج

يقول النبي (ص): يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ. ويقول: لَكِنِّي أَنَا أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. ويقول: تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ، فإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كما يقول: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ.

عرض أشكال العقاب المتعلقة بالمخالفة

يقول أحمد بن حنبل: "ولا أعلم بعد قتل النفس ذنبًا أعظم من الزنا".

ويقول الله عز وجل في سورة النور: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [3].

وفي سورة الإسراء: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [32]. وفي سورة المؤمنون: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [5-6-7]. وفي سورة الفرقان: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} [68-69]. وفي سورة النور: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [19]. ويقول النبي (ص): لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ويقول: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا. كما يقول: احفظوا فروجكم. ألا من حفظ الله له فرجه فله الجنة.

التعرض لأشكال الرحمة الربانية وحث المخالفين على التوبة

يقول الله عز وجل في سورة الزمر: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)". وفي سورة الفرقان: "إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70)". وفي سورة البقرة: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ

أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيم (160)". وفي سورة النساء: " إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17)". وتُؤخذ الرحمة الإلهية كدافع للابتعاد عن الفعل، والانقطاع عن ممارسته، والسعي نحو التوبة، ولا تُؤخذ كمبرر للانخراط فيه، والاستمرار في مزاولته. وإذا تطرقنا إلي عملية الشيطنة التي يلحقها البعض بالغريزة الجنسية، لوجدنا أنفسنا أمام حالة من الفهم الخاطئ المُمارس من قبلهم تجاه طريقة تعامل الدين مع الغريزة. فالغريزة الجنسية بعيدة كل البعد عن الشيطنة أو القذارة أو الدناءة طالما أنها تُمارس ضمن منظومة الزواج، وتُوسم بالصفات السابقة إذا تم ممارستها خارج هذه المنظومة المُعلنة، والمعروفة من قبل الجميع، ويجب علي المرء أن يتوب سريعاً إذا وقع في الزنا بأي شكل من الأشكال. وترتبط عملية الشيطنة بضيق الأفق وافتقاد المرونة الذهنية، حيث تعمد شيطنة السلوك الجنسي إلي منظومات فكرية مُسبقة، وبعيدة كل البعد عن التحليل الموضوعي للأمور. ندرك جميعاً حقيقة النشاط الجنسي، والصراع القائم حوله منذ القدم، ولن أتحدث عنه ضمن الإطار الذي يرصده من خلاله فرويد واصفاً إياه بأصل الشرور، لكنني

سأضعه في الإطار الصحيح القائم علي الجمع بين طبيعة الخير، وطبيعة الشر علي السواء؛ فمن الممكن أن تُوظف الغريزة الجنسية ضمن الإطار المبني علي الخير والحب والعاطفة والسلام، ومن الممكن أيضاً أن تُوظف ضمن السياق المبني علي الشر والعنف والصراع. إن عملية الشيطنة الخالصة للنشاط الجنسي بعيدة كل البعد عن الفهم السليم، والإدراك الواسع للموضوع بشكل عام؛ حيث يعتبر الدين السلوك الجنسي أمراً روحياً يُثاب عليه المرء إذا عمل علي إرضائه بالشكل السليم، وفي الإطار الصحيح المتمثل في منظومة الزواج. فإذا جامع الرجل زوجته فهو مأجور لأنه اتَّبع الحلال، وترك الحرام، وهو ما يؤكده حديثٌ النبي (ص)، فعن أبي ذر: "أن ناسا من أصحاب النبي قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليله صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدُنا شهوتَه

ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر".

التعرض للأجر العظيم المتعلق بالتوظيف الغريزي السوي

يقول الله عز وجل في سورة الأحزاب: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35)".

وفي سورة النور: "قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّـهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ

وَتُوبُوا إِلَى اللَّـهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (30-31)". ومن هنا نستنتج أن الدين ينظر إلي التوظيف غير السوي علي أنه شر يلحقه الإنسان بنفسه، ومن الضروري أن يبتعد عنه، ويعمل علي تجنبه بشكل دائم، وأن يلجأ إلي التوبة والانقطاع عنه إذا وقع فيه، حيث يقول الله عز وجل في سورة يوسف: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)".

وفي نهاية الفصل، نريد أن نؤكد علي حجم التوافق الفعلي بين العلم، والدين فيما يخص الإرضاء الجنسي، حيث لا يعمل الإسلام علي كبت الغريزة لكنه يسعي نحو تنظيمها، ووضعها في الإطار الصحيح، والسليم.

الجنس في الفيلم والرواية

تتبع عملية التجسيد السينمائي للغريزة الجنسية درجات متفاوتة ومختلفة بشكل كبير، فعندما نتأمل عملية الإنتاج السينمائي الأوروبي والأمريكي، نجد أنفسنا بصدد التعامل مع عملية تجسيدية متدرجة، ومتنوعة بصورة واضحة. ففي الفيلم السينمائي الإيطالي "مالينا"، يقدم المخرج جوزبي تورناتوري قصة المراهق الصغير المنغمس في أحلامه وفنتازياته المرتبطة بالسيدة مالينا، والتي تسكن علي مقربة منه، حيث يعمد تورناتوري إلي تجسيد الغريزة الجنسية عبر التطرق إلي الصراع الداخلي الكامن في نفس المراهق الصغير، والمتمثل في الكثير من الخيالات الجنسية التي لا تأخذ منه نصيباً كبيراً علي أرض الواقع، لكنها تلاعب عقله الباطن بصورة مستمرة. كما يستخدم الإيطالية الشهيرة مونيكا بلوتشي ليضفي علي الدور الكثير من الواقعية والإثارة، ويعمد إلي العديد من اللقطات الراصدة لجمالها، والمعبرة عن مدي تأثيرها علي الفتي الصغير. وقد نجد حالة مشابهة للبيئة السابقة من حيث الاعتماد علي الطابع الجنسي عبر التطرق إلي فيلم "الغريزة الرئيسية"، والذي يبالغ بشكل واضح في عملية التجسيد الخاصة بالسلوكيات الجنسية، ويستخدمها كوسيلة واضحة لجذب الجمهور إلي صالات السينما،

والعمل علي إثارة انتباهه معتمداً علي الحضور الواضح لشارون ستون، واستخدامها كمركز رئيسي للفيلم، وكنواة أساسية له بشكل صريح. أيضاً من الممكن أن نتأمل معاً أفلام المخرج الإيطالي برناردو برتلوتشي، والذي يعمد بشكل مستمر إلي التعبير الصريح عن الغريزة الجنسية عبر أفلامه السينمائية، حيث من الممكن أن نستخدم فيلميه "الحالمون"، و"التانجو الأخير في باريس" كمثال واضح للتعبير عن منظومته الفكرية المتعلقة بالموضوع موضع النقاش. كما أننا من الممكن أن نرصد المزيد من التحرر المتعلق بالتجسيد السينمائي للغريزة الجنسية عبر تأمل أفلام السينما الفرنسية، والتي تعمد باستمرار إلي العري، والتجسيد المبالغ فيه للغريزة بشكل واضح، ومن الممكن أن نشهد عمليات تجسيدية غير مُبررة بشكل متكرر عبر أفلامهم المتعددة. ففي الفيلم الفرنسي "حياة أديل"، نجد أنفسنا بصدد التعامل مع عملية تجسيدية معتمدة بشكل واضح علي المبالغة في العرض والتركيز علي الإباحية المفرطة، حيث يعمل المخرج عبد اللطيف كشيش علي إظهار جوانب الحياة الشخصية والجنسية المتعلقة بالفتاة وصديقتها المتحررة دون أي قيود تُذكر. كما نلاحظ تركيز كشيش علي الجانب الجنسي في أفلامه المختلفة بشكل

واضح، وكأنه يعمد باستمرار إلي الغريزة الجنسية كوسيلة لجذب الجمهور، ولفت الانتباه. من الممكن أيضاً أن نلاحظ التعمد الهوليودي الواضح، والمتعلق بإضفاء الطابع الجنسي علي الكثير من أفلامهم بل من الممكن بسهولة تتبع المسار الخاص بعملية الإنتاج السينمائي المُتبعة في أميركا، والتي تعمد إلي استخدام الغريزة الجنسية في أفلامهم بدءا من الإيحاءات، وانتهاء بالتجسيد الصريح، وإثارة الضجة في المجلات، والقنوات حول الأدوار الجديدة الجامحة للممثلات، والفنانات. هنا نجد استخداماً صريحاً لعملية التجسيد الجنسي كوسيلة مركزية تسعي بشكل واضح تجاه جذب الجمهور ولفت الانتباه، حيث أنه من السهل أن نجد الكثير من الأفلام المُفرغة من المحتوي الفكري، والمُفعمة بالمحتوي الجنسي، والجانية للكثير من الأموال؛ فعندما نتأمل معاً ثلاثية (خمسون درجة من جراي) السينمائية المعتمدة علي مجموعة من الروايات الشهيرة والتي تحمل نفس الاسم، فإننا بصدد التعامل مع عملية مُدمجة من المحتوي الفارغ والتجسيد الجنسي المبالغ، حيث يعمد المخرج إلي استخدام داكوتا جونسون كوسيلة صريحة وواضحة لجذب الانتباه وتحقيق الإيرادات. ولكننا هنا بصدد التعامل مع إشكالية أزلية متعلقة

باستخدام المرأة دون قيود عبر الوسيط السينمائي، حيث تراودنا الكثير من الأسئلة المتعلقة بهذه النقطة مثل .. هل تعمل السينما علي تسليع المرأة؟ أم تستخدمها ضمن الإطار الفني والفكري دون تبجح أو مبالغة؟ .. في الحقيقة من الصعب أن نجد أجوبةً واضحةً لهذا النوع من الأسئلة، لكننا علي ثقة تامة أننا قد تعرضنا عبر تجربتنا الممتدة مع السينما إلي عمليات متكررة من التجسيد الجنسي دون مبرر يُوضح، ودون حاجة تُذكر. وبالنسبة لفن الرواية، تعج الكثير من الروايات العالمية بأشكال التجسيد الصريح للسلوك الجنسي الخاص بالعديد من الشخصيات المُدرجة ضمن الإطار الروائي، وعندما نتأمل معاً أعمال باولو كويلو، فإننا بصدد التعامل مع رجل قد اتُهم كثيراً من قبل القراء بالهوس الجنسي، حيث يعمد إلي وصف الممارسات الجنسية في كثير من رواياته بشكل واضح وصريح. يعتمد كويلو في رواياته علي التجسيد الجنسي الصادم والجامح بشكل متكرر لينخرط في عملية تجسيدية عميقة مُكونة من الوصف والتفصيل. يأخذنا في جولات فاحشة مع شخصياته المضطربة بشكل مستمر، ويعمل علي تفصيل الجوانب النفسية والصراعات الداخلية الناجمة عن الكثير من التصرفات والسلوكيات

المتعلقة بشخصيات رواياته مثل ممارسة الخيانة الزوجية أو الانخراط في الدعارة. ومن الممكن أيضاً أن نتطرق إلي أعمال الروائية إريكا يونج، والتي تعتمد بشكل واضح علي الإباحية المفرطة والتجسيد المبالغ. ومن الممكن أن نتأمل ثلاثيتها الشهيرة (خمسون لوناً)، والتي تتكون من "الخوف من الطيران"، و"الخوف من الخمسين"، و"الخوف من الموت"، حيث تعبر يونج في عملها الأدبي عن صراعات المرأة، وعن كل ما يخصها، وكل ما يحيط بها. كما ترصد مراحل الحياة المختلفة، وما يصاحبها من تغيرات وتقلبات، وتوضح مدي تأثيرها عليها، وعلي غيرها من النساء. لكنها تعمل علي إضافة جرعة غير عادية من الإباحية إلي رواياتها الثلاث، وتعمد إلي التفصيل الواضح للممارسات الجنسية، وتخلق الكثير من الشخصيات المنخرطة في ممارسة الإباحية، والفجاجة عبر صفحات رواياتها الجامحة. إن عملية التجسيد الصريح للغريزة الجنسية عبر فن الرواية أمر شائع ومتكرر بين الكثير من الروائيين، ومن الممكن أن نشهد درجات متفاوتة من عملية التجسيد بصورة واضحة، حيث أننا قد نجدها مسبوقةً بالكثير من الاضطرابات العاطفية، والتأرجحات الذهنية المسيطرة علي أبطال الرواية مثل عملية التجسيد

المُتبعة في أعمال التشيكي الشهير ميلان كونديرا، والتي تعمد إلي إظهار الجوانب العاطفية، والرومانسية المتعلقة بشخصيات الرواية، وفي نفس الوقت تعمل علي إبراز الجوانب الجنسية بين الحين، والآخر ضمن إطار متدرج. وفي النهاية، لابد أن ندرك التعمد المُتبع من قبل عدد كبير من السينمائيين والروائيين بخصوص إدراج العنصر الجنسي في الأعمال السينمائية والروائية من أجل جذب الجمهور، ولفت الانتباه، وجني الكثير من الأرباح بكل تأكيد.

الدعارة والإباحية الافتراضية

يصف الكثيرون الدعارة بكونها المهنة الأقدم في التاريخ، ويعتبرها الدين ضرباً من القذارة والدناءة، ويتوعد المنخرطين في ممارستها بأشد العقاب، كما ينظر إليها المجتمع بنفس النظرة، ويلفظها بشكل تام، وبالرغم من ذلك يمكننا أن نشعر بوجودها بكل سهولة ويسر، حيث مازالت تُمارس علي المستوي العلني في المجتمعات التي تسمح بترخيص العمل بها، وعلي المستوي السري في المجتمعات التي تعارضها. تعرضت الدعارة للكثير من عمليات التنظيم، والتقنين في العديد من المجتمعات المختلفة حول العالم، وتنوعت القوانين المنظمة لها بشكل كبير وموسع. ولقد انتشرت الكثير من المخاوف المتعلقة بالأمراض التي تعمل علي نشرها، وبثها بين الناس، حيث تنتشر الأمراض الجنسية بكل سهولة ويسر بين المنخرطين في الممارسات الجنسية العشوائية مثل الإيدز، والزهري، وغيرها من الأمراض الخطيرة، والتي تتنوع مراحلها وتتعدد مخاطرها بشكل كبير. وعندما نتأمل معاً ممارسات البغاء المتعلقة بأغنياء القوم وأعاليهم، فمن الممكن أن نرصد البيئة الخاصة بفتيات الأوران، واللاتي أخذن نصيباً من الشهرة لفترة مطولة في اليابان، وحرصن باستمرار علي إمتاع الأغنياء والمشاهير. كما حرصن بشكل دائم علي منع

فتيات الجيشا من الانخراط في التسلية الجنسية، والاكتفاء بالتسلية الفنية والترفيهية حرصاً منهن علي الانفراد التام بالمهنة، والسيطرة الكاملة علي المجال. وبالرغم من انخراط الجيشا في مجتمعات البغاء كفنانات ممارسات للنشاط الترفيهي فقط إلا أنهن قد صُنفن من قبل الكثيرين بالباغيات، والداعرات. ولقد أدي الجدل القائم حول طبيعة عمل فتيات الجيشا إلي إقصائهن، وحجزهن في أحياء معزولة. تعمل الجيشا علي تقديم الكثير من الأنشطة الترفيهية، والرقص، وقراءة الشعر، والعزف علي الآلات الموسيقية من أجل إمتاع الزبائن، ولا ينخرطن في أي ممارسة جنسية. ولقد اختلطت الأمور علي الكثيرين ممن صنفوا الجيشا بالداعرات كنتيجة حتمية للتشابه الملحوظ بين ملابسهن، وملابس الممارسات للبغاء. كان البغاء مشروعاً في فترة الإيدو، واشتهرت فتيات الأوران بالانخراط في ممارسته بشكل موسع، وقد خلط الناس بين الجيشا، والأوران حيث تشبه الأوران الجيشا في شكل الشعر والمكياج الأبيض، غير أن الاختلاف يكمن في الشريط الذي يُربط حول الخصر، والذي يُدعى بالأوبي، حيث يُعقد إلى الأمام. ولقد أصدرت الحكومة فيما بعد قراراً يسمح للجيشا بالانخراط في الممارسات

الجنسية مما أدي إلي خلاف كبير بين اليابانيين، حيث أنهم علي علم هائل بالفرق الواسع بين الجيشا والبغايا، مما دفع الحكومة فيما بعد إلي التفرقة بشكل واضح بين الجيشا، والمنخرطات في البغاء حفاظاً علي سمعة الجيشا. بالطبع، تنتشر الدعارة في الكثير من بقاع الأرض (روسيا، وتايلاند، وأميركا، والبرازيل...إلخ)، وتعمل في العلانية حينما تتوافر وسائل الترخيص والتقنين، وفي نفس الوقت تتجه للسرية والعمل خفيةً حينما تُمنع عنها التراخيص وتلفظها القوانين. وبالرغم من ذلك، يتعرض الكثير من المنخرطين في ممارسة الدعارة إلي الكثير من المشاكل، والصراعات علي كافة المستويات، والدرجات بسبب طبيعة المهنة نفسها، والنظرة النسبية المتعلقة بها حول العالم. وقد تأخذ هذه الممارسات سياقاً مختلفاً من التربح، وجني الأموال عبر الاعتماد علي عملية التصوير والعرض، والتي تظهر من خلال الإباحية الافتراضية المتمثلة في أفلام البورنو، والتي تنتجها الولايات المتحدة بشكل رئيسي وموسع، وتشاركها دول مثل روسيا، والتشيك، وتايلاند، واليابان في نفس المجال. تعمل الولايات المتحدة علي إنتاج عدد ضخم من الأفلام الإباحية كل عام، وتنفق ملايين الدولارات عليها، وفي المقابل تجني

الكثير من الأرباح علي كافة الأصعدة، والمستويات. تقدم هذه الأفلام صورةً مخالفةً للواقع بشكل كبير حيث تعمل علي تصوير النشاط الجنسي بصورته الحيوانية الخالصة مهملةً الجانب العاطفي، والسيكولوجي للإنسان، والذي يمثل الفارق الواضح والصريح بين النشاط الإنساني والحيواني. كما تعمد إلي استخدام الأسلوب الاحترافي، والتقني في عملية الإنتاج فتلجأ إلي المونتاج، واستخدام التأثيرات المختلفة، والتلاعب بالألوان، والاعتماد علي نماذج بشرية مُدربة، ومنتقاة بعناية، ودقة. تواجه الأفلام الإباحية الكثير من المعارضة من قبل عدد كبير من الناشطات النسويات اللاتي يهاجمن الإباحية بشكل واضح وصريح، ويتهمن الشركات المنتجة لها بتسليع المرأة، والتقليل من شأنها، والعمل علي تقديمها ضمن إطار حيواني خالص بينما تنظر بعض الناشطات إلي الأمر علي أنه نصر لهن، حيث يُسمح للإناث بالعمل في المجال بشكل متساوٍ مع الرجال مما يقوي من موقفهن، ويعمل علي تدعيمهن. وبالرغم من ذلك، يُعد العمل بالأفلام الإباحية أمراً شائناً علي كافة المستويات، وبالنسبة لكافة المجتمعات، خاصةً المجتمعات صاحبة المرجعية الدينية، والخلفية الأخلاقية المتأصلة، والتي لا تسمح بمثل هذه الأمور، وتعمل

علي لفظها بشكل مستمر. تري الكثير من الأبحاث صلةً واضحةً بين إنتاج الأفلام الإباحية، وانخفاض معدل الجرائم الجنسية والاغتصاب والتحرش، بينما ينظر البعض إليها علي أنها محفز للانخراط في الممارسات المنحرفة، والبعيدة عن السلوك السوي الْمُتفق عليه. كما ينظر الكثير من الباحثين إليها علي أنها المدمر الفعلي للكثير من العلاقات بين الذكور، والإناث علي أرض الواقع باعتبارها مصدرا رئيسيا لقتل العاطفة، ورفع سقف التوقعات علي المستوي الجسدي والجنسي من قبل الطرفين. تعمل "أفلام البورنو" علي تأصيل الطبيعة الحيوانية المرتبطة بالإنسان، وتعرضها في صورتها الأولية ونمطها الخام ضمن إطار مُوسع، كما تعمل علي تجاهل الجانب العاطفي بشكل كلي أو تعرضه في صورة هزلية بعيدة كل البعد عن العقل والمنطق. تخلق هذه الأفلام عند الشباب حالات مختلفة ومتدرجة بينهم بشكل كبير، فقد تدفع بأحدهم إلي الهوس الجنسي، وقد تخلق لآخر حالة من الضغط النفسي، وقد تحيط أحدهم بالكثير من الخيالات والأوهام البعيدة كل البعد عن الواقع، بينما ينظر إليها الكثيرون علي أنها وسيلة بسيطة للتسلية والترفيه، وأنها لا تمثل أمراً معقداً يحتاج إلي كل هذه الأبحاث والتحليلات، بل تمثل حالة من الترفيه

الافتراضي البعيدة كل البعد عن أي مخاطر ممكنة أو محتملة. وأؤكد علي الحقيقة المتمثلة في تصميم الكثيرين علي تجنب عملية التحليل، والبحث فيما يخص الإباحية الافتراضية، ولا يتوقفون عند هذه النقطة فحسب بل تمتد منظوماتهم الفكرية لتشمل النشاط الجنسي بشكل عام، حيث يري أنصار هذا الفكر أن تحليل النشاط الجنسي وكل ما يتعلق به أمر سيء ومدمر لخصوصيته ومعكر لصفو التجربة الجنسية بشكل تام. من الضروري أن نؤكد علي حالة الحزن، واليأس، والفقدان العاطفي التي تعيشها الكثير من "الموديلز" المشاركات في الأفلام الإباحية، وهو ما تعمل الكثيرات منهن علي التعبير عنه بصورة مستمرة، حيث تفقدهن هذه المهنة الكثير من العواطف البشرية الطيبة، وتؤدي بهن إلي الانخراط في بيئة حيوانية من الطراز الأول، وقد يتعرض الذكور إلي الحالة نفسها لكن بصورة أقل مقارنةً بالإناث.

الهوس الجنسي وتسليع المرأة

يرتبط الهوس الجنسي بالوساوس القهرية بشكل رئيسي عند الكثيرين، وقد يسيطر علي الشخص كنتيجة حتمية لعدم قدرته علي التعامل مع الضغوط العاطفية، والأخلاقية، والدينية التي تحيط به. يعمل المخ البشري علي بث الصور الجنسية في عقول المراهقين، والبالغين ضمن إطار محدد بين الحين والآخر كجزء رئيسي من البرمجة الخاصة به، والتي تعمد إلي تحفيز الشخص علي إرضاء الغريزة الجنسية أو تعمل علي السعي نحو الاحتلام اللاإرادي أثناء النوم أو ممارسة الاستمناء أو الانخراط في الجماع الكامل. لكن المهووس يعاني من تكرار متسلسل لهذه الصور بأشكال مختلفة وأنماط متعددة، وقد تصاحبه الكثير من الخيالات الفاحشة المُفعمة بالانحرافات المختلفة. يدرك الكثير من المصابين المشكلة التي يعانون منها، وفي نفس الوقت لا تُتاح الفرصة لغيرهم بالتعرف علي حجم الضرر المُلحق بحيواتهم، كما يحتاج المرضي في هذه الحالات إلي العلاج السلوكي والتدريبي حرصاً علي تجنب أعراض المرض ومقاومته، كما أنه من الممكن أن تُصرف لهم بعض الأدوية المضادة للاكتئاب، والمنشطة للسرتونين بكل تأكيد. في الحقيقة، تمثل هذه الوساوس علي المدى البعيد أمراً خطيراً ومدمراً للشخص علي

كافة المستويات حيث أنه من الممكن أن يفاجئ العقل البشري امرأةً متزوجةً علي سبيل المثال بخيالات جنسية موجهة تجاه ابنها الصغير، أو أن يحوط شاباً صغيراً بالكثير من المخاوف المتعلقة بإمكانية شذوذه، وغيرها من الأمثلة التي لا حصر لها. ونستنتج من الكلام السابق أن الأمر برمته يمثل تداخلاً قهرياً للنشاط الجنسي مع نمط الحياة الطبيعية بالنسبة للمرضي، مما يدفعهم إلي الانخراط في الممارسات الجنسية بأنواعها المختلفة بشكل مستمر ودائم. تؤثر هذه الوساوس علي الكثيرين منهم متلاعبةً بالليبيدو بصورة تشملها المبالغة والتطرف مقارنةً بالإنسان الطبيعي أو المعياري، كما تدفعهم إلي الانخراط في العديد من الممارسات المرتبطة بالخطل الجنسي "البارافيليا"، ويُعد "الفوياريزم" مثالاً موضحاً لهذا الأمر ومعبراً عنه بشكل كبير حيث يعمد المُصاب إليه بشكل مستمر باعتباره النشاط الأكثر سهولة من حيث الممارسة. في الحقيقة، نلجأ إلي الربط بين حالات الهوس الجنسي، والوساوس القهرية بشكل مباشر في أغلب الأحيان؛ لأنها تعمد إلي عامل التكرار، والذي يمثل أمراً مشتركاً بين الهوس الجنسي، والوسواس القهري. وقد نعمد إلي أسباب أخري فيما يخص هذه البيئة، حيث أنه من الممكن أن يكون

الهوس الجنسي نتاجاً سريعاً لحالة من الفهم الخاطئ المُمارس من قبل المخ، والمبني علي الخلط بين آليات النجاة وآليات التمتع، وحينها يعطي لآليات التمتع نصيباً كبيراً، ومبالغاً فيه معتبراً إياها ضمن منظومة النجاة الأكثر أهمية مقارنةً بآليات التمتع، وحينها يعطي العقل البشري للجنس أهمية تشبه أهمية التنفس علي سبيل المثال! فنجد الشخص منخرطاً في الكثير من الممارسات الجنسية التي تفوق طاقته بشكل أكيد، مما يؤدي إلي ظهور الكثير من المشاكل بصورة لاحقة. وإذا تطرقنا إلي فكرة "تسليع المرأة" وعملنا علي دراستها بتمعن، لوجدنا أنفسنا أمام حالة من العمل علي تحويل الأنثي إلي سلعة، واستخدام جسدها ضمن إطار مادي صادم، مما يؤدي إلي خلق الكثير من الضغوط علي كافة المستويات بصورة يشملها الاستهجان، والتعجب. تستخدم الكثير من المحلات، والمطاعم، والإعلانات الشابات كوسيلة لجذب الزبائن، ومن هنا نجد النسويات منخرطات في طرح الأطروحات، وفرض النظريات حول هذه القضية المؤرقة بالنسبة لهن بشكل مستمر. فقد شكلت قضية تسليع المرأة أمرا أساسيا وبناء رئيسيا للكثير من النظريات النسوية والأطروحات النفسية المتعلقة بهن، حيث تنظر الكثيرات منهن إلي الأمر

بمثابة العامل الرئيسي القابع خلف عدم المساواة وعدم تحقيق العدالة بين الجنسين، فعندما نتأمل سلسلة المطاعم الشهيرة "هوترز"، فإننا بصدد التعامل مع مجموعة من المطاعم المعتمدة علي الفتيات والشابات الصغيرات بشكل رئيسي، حيث تجبرهن علي التعري، وملاطفة الزبائن بأي صورة ممكنة. وقد تأخذ عملية التسليع سياقاً مختلفاً معتمدةً علي المرأة نفسها وامتلاكها لرغبة التعري وسعيها نحو لفت الأنظار، حيث تري بعض النسويات أن عملية الانخراط في التجمل المُبالغ فيه وارتداء الملابس الكاشفة تمثل نموذجاً واضحاً للتسليع، والسماح للآخرين بالنظر إلي المرأة علي أنها سلعة أو شيء يُقتني، بينما تنظر أخريات إلي هذا الإطار بصورة مختلفة حيث يعتبرن الأمر بمثابة تدعيم للمرأة، ووسيلة للتعبير عن القوة، والهيمنة. تتبع الموديل الأمريكية إيميلي راتاكوسكي المنظور الثاني المُعتمد من قبل النسويات فيما يخص عملية التسليع، حيث تعتبر التعري والتقاط الصور الكاشفة بمثابة المدعم الواضح والصريح للمرأة، كما تنظر إلي الأمر برمته علي أنه تعبير عميق عن القوة والتمكن، وهو ما يخالف الكثير من المنظومات الفكرية، والثقافية، والدينية في العديد من المجتمعات. وفي نفس الوقت، كثيراً ما تُهاجم راتاكوسكي

من قبل المعجبين والمتابعين، لاعتمادها الصريح علي التعري بشكل مستمر ودائم، دون الاهتمام بالأزياء نفسها التي تعمل علي الترويج لها، حيث يري البعض أنها تمثل نموذجاً صريحاً لتسليع المرأة، وهو ما يخالف فكرها ومنظومتها المُعتمدة من قبلها أثناء ممارستها لعملها بشكل عام.

وفي نفس الوقت، يري البعض أنها تعاني من هوس جنسي أو شيء من هذا القبيل؛ لأنها لا تكتفي بعملية التعري فحسب بل تعمد أيضاً إلي الإيحاءات الجنسية في الكثير من الأوقات. بالطبع، تعمد الكثيرات ممن يعملن في هذا المجال إلي النهج المُتبع من قبل راتاكوسكي، لكننا قد تطرقنا إليها بالتحديد لأنها كثيراً ما تشير إلي نفسها علي أنها ناشطة نسوية مدافعة عن حقوق المرأة وساعية نحو الارتقاء بها.

عشوائية النشاط الجنسي وعقول المراهقين والمراهقات

تسعي الكثير من المجتمعات المحافظة نحو عملية التنظيم والضبط فيما يخص النشاط الجنسي وكل ما يتعلق به، كما تعمد إلي العادات والتقاليد المنظمة للممارسات الجنسية والموظفة لها ضمن أطر محددة ومتوارثة. بالطبع، يُعد الدين المنظم الأول للنشاط الجنسي والمصدر الرئيسي للأخلاق، وكل ما يتصل بها من ممارسات سوية. لكننا علي علم بحجم العشوائية التي كثيراً ما تطول النشاط الجنسي، مما يخلق في نهاية الأمر مجتمعات متفرقة ومختلفة في بنيتها التطبيقية لكنها متفقة في بنيتها النظرية المعتمدة علي الإرشادات، واللوائح النابعة من الدين والعادات والتقاليد. لا ترتبط عشوائية النشاط الجنسي ببيئة محددة، فمن الممكن أن نرصدها في حي شعبي أو قرية صغيرة أو مدينة كبيرة أو مجتمع سكني بسيط أو مجتمع سكني معقد أو بيئة ساحلية أو بيئة منفصلة عن الفكر الديني أو بيئة متصلة بالمنظومة الدينية بشكل عام، ويكمن النقيض الواضح للعشوائية الجنسية في منظومة الزواج، والتي تمثل الإطار الواضح، والصريح، والمُنظم، والمُتفق عليه من قبل الكثير من المجتمعات، خاصةً المجتمعات صاحبة الخلفية الدينية. من الصعب أن نرصد حالات واضحة من الممارسات العشوائية لكن من الممكن أن نتنبأ بحالات خفية منها في

المجتمعات صاحبة الخلفية الدينية، والتي تتضمن في نفس الوقت وفي نهاية المطاف الكثير من الممارسات المُنظمة، والمُوظفة عبر منظومة الزواج القائمة علي الدين، والمبنية علي قواعده، وإرشاداته، والتي من المُفترض أن تمثل الأغلبية الكاسحة بالنسبة لهذه المجتمعات. بالنسبة للمجتمعات اللادينية، فإننا بصدد التعامل مع حالة من التحرر الجنسي والفكري بشكل كبير، والتي من شأنها أن تعمل علي لفظ مصطلح "العشوائية الجنسية" بكل تأكيد، وفي نفس الوقت قد نرصد عدداً من المجتمعات الحريصة علي تنظيم النشاط الجنسي ضمن منظومة العادات والتقاليد دون الوجود الفعلي لدين محدد. ومن الممكن أن نرصد مجتمعات أخري متصلة بمنظومة الدين لكنها لا تعمل نهائياً بالقواعد المتعلقة بالنشاط الجنسي، وتصمم علي تجاهلها بشكل كلي. تتدرج حالة التحرر الجنسي بين المجتمعات المختلفة، وتختلف عن حالة العشوائية الجنسية بالنسبة للمفهوم المتعلق بكل منهما، حيث أصنف العشوائية الجنسية بكونها مُدركة في الأساس كنتيجة حتمية للوجود الفعلي للنقيض المتمثل في المنظومة الأخلاقية أو الدينية، والتي تصمم بقوة علي عملية التنظيم والضبط. وبالنسبة لحالة التحرر الجنسي، فمن الأفضل أن تُلحق بالغرب

الأمريكي والأوروبي دون تعميم، بينما يُستخدم مصطلح "العشوائية الجنسية" الخفية مع المجتمعات المصممة علي عملية التنظيم والتوظيف المنضبط. نشبت الثورة الجنسية خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، واعتمدت علي نشر الكثير من المفاهيم مثل حرية التعبير عن الجنس، وحرية الممارسات الجنسية سواء كان المرء متزوجاً أم لا، والأفكار المتعلقة بمنع الحمل، والعري الصريح، وإتاحة الحرية للمثليين، والإجهاض، والأفكار النسوية، وغيرها من المفاهيم والأفكار المتعلقة بالجنس والداعية للتحرر بشكل عام. واعتنق "الهيبيز" هذه الأفكار بشكل رئيسي، وعملوا علي التعبير عنها بصورة مستمرة ودائمة، ودعوا لممارسة الجنس بشكل عشوائي أهوج، لكنهم قللوا في النهاية من هذه الممارسات العشوائية وامتنعوا عنها لاكتشافهم لحجم الضرر الروحي الناجم عن الجمود العاطفي والاضطراب النفسي المتعلق بالأمر بشكل عام، حيث التفتوا إلي ابتعادهم عن الحرية الروحية المتعلقة بالفرد بشكل كبير وملفت. يختلف الكثيرون حول حجم التأثير المتعلق بالثورة الجنسية لكنهم يجمعون علي الحرية المُكتسبة التي منحتها هذه الثورة للناس فيما يخص عملية التحدث عن الجنس، وكل ما يتعلق به. ورجوعاً إلي

العشوائية المهيمنة علي النشاط الجنسي، فمن الضروري أن أؤكد علي أنها لا تمتد لتشمل المجتمع بأكمله، ولا تمتد عملية التنظيم لتسيطر عليه بصورة كلية، لكننا أمام حالة من الانقسام فيما يخص هذا الشأن، والصنفان موجودان بطبيعة الحال، وهو ما يخبرنا به المنطق بكل تأكيد، حيث تخبرنا التجربة الإنسانية بوجود الأبيض والأسود علي طول الطريق، وهو ما يمثل السلوكيات البشرية المختلفة بشكل واضح وفعال. وإذا تأملنا عقول المراهقين والمراهقات، لوجدنا أنفسنا أمام حالة من التوتر العميق وبيئة من التأرجح والحراك، حيث تترجم عقولهم وعقولهن الاضطرابات الهرمونية والعاطفية إلي حالة من التمرد والعصيان في كثير من الأوقات، وهذا ما تعبر عنه الكثير من الأبحاث المرتبطة بتتبع ودراسة سلوك المراهق والمراهقة. كما أنه من الممكن أن نشير إلي حجم الفضول المسيطر علي العقل البشري فيما يخص الجنس الآخر أثناء مرحلة المراهقة، حيث يعمل عقل الذكر علي تتبع النشاط الأنثوي بشكل مستمر، ويعمل عقل الأنثى علي تتبع نشاط الذكور ضمن إطار مشابه، ومن الضروري أيضاً أن ندرك سعي الذكر نحو المتعة الحسية بشكل أكبر أثناء هذه المرحلة مقارنةً بالإناث، وسعي الأنثى نحو الإرضاء العاطفي بشكل أكبر مقارنةً

بالذكور. تظهر علامات البلوغ عند الذكور متمثلةً في خشونة الصوت، ونمو القضيب والخصيتين والعضلات وشعر الإبط والعانة، وغيرها من العلامات والتغيرات المعبرة عن هذه المرحلة، بينما تتمثل علامات البلوغ عند الإناث في بداية الدورة الشهرية، ونمو الثديين، وزيادة تركز الدهون في مناطق محددة، وظهور شعر العانة، والتقلبات المزاجية المرتبطة بمتلازمة ما قبل الدورة، وغيرها من العلامات الأخرى. بالطبع تمثل هذه التغيرات الجسدية أمراً رئيسياً ومحورياً فيما يتعلق بالتقلبات المزاجية والتكيف مع هذه التطورات المفاجئة، والتي تعمل علي إثارة أذهانهم وأذهانهن بشكل مستمر خلال هذه المرحلة لتثير الفضول وحب التعرف.

يبحث المراهق في هذه المرحلة عن الوسائل المتاحة للتعبير عن الغريزة الجنسية، ومن هنا تتشكل وتتنوع عقول المراهقين متخذةً الكثير من الأساليب والطرق التي من شأنها أن توفر لهم وسيلةً صريحةً للتعبير عن الغريزة الجنسية التي تلاعبهم بين الحين والآخر. ينخرط المراهق في بيئته المندرجة ضمن إطار الجنسانية، ويعمل علي التعبير عن جنسانيته ضمن إطار محدد تسنه العادات والتقاليد والدين، ويتدرج هذا الإطار بشكل كبير بين المجتمعات المختلفة وفقاً لدرجة التأصل والالتزام الخاصة

بالدين والقواعد المجتمعية، والتي قد تشهد حالة من المرونة والمطاطية. وفي عصرنا الحديث، ظهر ما يُعرف "بالسكستنج"، وهو مصطلح يشير إلي عملية التبادل الجنسي أو الإباحي بين الأفراد علي الهواتف الخاصة بهم، والتي من شأنها أن تعتمد علي الصور، والفيديوهات، والرسائل المتضمنة لطبيعة جنسية بشكل واضح، وتُصنف هذه الحالة ضمن سلوكيات البارافيليا بصورة مؤكدة. ومن الممكن أن نرصد حالات من المراهقين ضمن هذا الإطار، حيث نجدهم منخرطين في ممارسة "السكستنج" باستمرار ولفترة مطولة من أعمارهم بشكل مثير للسخرية، وبصورة تستحق الدراسة والتمعن. بالطبع، يمثل الأمر سلوكاً مرفوضاً من قبل الدين والكثير من المجتمعات، كما أنه قد يؤدي إلي الكثير من العواقب الوخيمة علي المستوي النفسي والاجتماعي والجنائي، فمن الممكن أن نرصد الكثير من الحالات التي تعرضت للعديد من العواقب الوخيمة من جراء الانخراط في عملية "السكستنج"، حيث أنه من الممكن أن تُستخدم هذه المواد المُرسلة ضمن إطار مفتوح، وبعيد عن الخصوصية لاحقاً من قبل المُرسل إليه، ومن المحتمل أن تُستخدم كوسيلة للإحراج أو التنمر أو الضغط فيما بعد. وبالنسبة للجزء النفسي، فقد تعرض الفتاة نفسها إلي

حالة من تأنيب الضمير والشعور بالعار والإحراج والاكتئاب والتسليع في نفس الوقت، ولا ينبغي أن نلوم الفتاة فقط في هذه الحالة لكن من الواجب علي المجتمع أن يوجه اللوم للطرف الآخر أيضاً.

الجنس في السياق العدمي

نحاول أن ننظر إلي الغريزة الجنسية بشكل مختلف عبر صفحات هذا الفصل، فلا نعمد إلي الأسلوب التقليدي المتعلق بالمنظور الخاص بها والمُعتاد من قبل الكثير من الباحثين والمفكرين، بل نعمل علي ربطها بالمنظور العدمي. ولن نتحدث عن الأمر بشكل مشابه لرؤية الكاتبة الأمريكية إريكا يونج المتمثلة في تشبيه العملية الجنسية بحبوب الإفطار والهدية التي تصاحبها، ولن نشبه عملية التكاثر بهذه الحبوب والمتعة المصاحبة للنشاط الجنسي بالهدية، لكننا سنلجأ إلي النظرة البعيدة عن الرؤية التقليدية والمنفصلة عن الأمور المُعتادة المتعلقة بالغريزة الجنسية ككل. تري بعض الحضارات القديمة أن الانخراط في النشاط الجنسي يشبه إلي حد كبير الحلم وكثيراً ما حذرت أبناءها من الانهماك في ممارسة الأنشطة الجنسية لكونها مُحرمة أو مُحتقرة، ومن الممكن أن نلاحظ عملية التطور الإنساني والدور الذي يلعبه الدين في خلق المعني ومنح القيمة للكثير من الأشياء ومن بينها الجنس، ومن هنا أعطي الغريزة الجنسية قدراً كبيراً من المعني والقيمة عبر تنظيمها والاهتمام بها. وإذا تطرقنا إلي حالة اللامعني التي تحاول العدمية أن تضفيها علي نتائج الغريزة الجنسية، لوجدنا أنفسنا أمام منظومة مبنية بشكل رئيسي علي عملية التأكيد المستمرة

المتعلقة بعدم جدوى الوجود البشري، وغياب القيمة الفعلية للنسل المُنتج من الممارسات الجنسية المتعددة كنتيجة لذلك. قد تخلق العدمية حالة من التذبذب والاضطراب، والتي من شأنها أن تسيطر علي عقل الفرد العادي فيما يخص عملية التكاثر وخلق المعني، ومن هنا يتأثر المنظور الفردي الخاص بالتوظيف الغريزي، ويقتصر علي المتعة العابرة والإرضاء الغريزي دون السعي الفعلي نحو التكاثر أو خلق أجيال جديدة. لا تمنحنا العدمية رأياً ثابتاً فيما يخص عملية التكاثر، لكن من الممكن أن نستشف رؤيتها الخاصة بعملية التوظيف الغريزي، حيث تؤكد باستمرار علي عدم جدوي كل شيء. وفي نفس الوقت، قد نشهد بيئةً من الانقسام فيما يخص المنظومة العدمية، حيث أنه من الممكن أن نرصد حالةً من العدمية الخالصة، وحالةً أخري من العدمية المتذبذبة، ومن هنا نجد أنفسنا بصدد التعامل مع منظور متذبذب فيما يخص عملية التكاثر، وفكر متردد فيما يخص الرؤية المتعلقة بالقيمة الفعلية للأبناء والأحفاد. لا تتماشي هذه المنظومة مع رؤية الكثير من المجتمعات، ولا تتفق مع الدين، ولا يمكن أن نحصرها في الإطار التطبيقي الخالص، لكن من الأفضل أن ندرجها ضمن الإطار النظري في أغلب الأوقات، حيث ينخرط البشر في نهاية

المطاف في ممارسة الأنشطة البشرية التقليدية، ومن ضمنها عملية التكاثر محاولين التكيف مع عملية خلق المعني، وإضفاء القيمة الوجودية علي سلوكياتهم وأفعالهم المختلفة. وقد نشهد حالة من الانخراط في الأحاسيس والأفكار العدمية المُمارسة من قبل الشخص العادي بين الحين والآخر، لكنه سريعاً ما يعود إلي المحاولة من جديد فيما يخص العملية الكلية المتعلقة بخلق المعني وإضفاء القيمة.

الغريزة الجنسية بين التكاثر والتمتع

تعمل الغريزة الجنسية وفقاً لعدة أطر من بينها التكاثر، والتمتع المبني علي نشاط الهرمونات والناقلات العصبية "الدوبامين" بشكل أساسي، وتنظر الكثير من المجتمعات إلي الغريزة الجنسية علي أنها وسيلة للتكاثر بشكل رئيسي، ومصدر للاستمتاع بشكل فرعي، بينما تعطي الكثير من المجتمعات الأخرى عملية الاستمتاع الأولوية والأهمية كالمجتمع الفرنسي علي سبيل المثال. وبالرغم من ذلك، يخبرنا المنطق التجريبي أن عدد الممارسات الجنسية المبنية علي فكرة الاستمتاع تفوق بمراحل عدد الممارسات المعتمدة علي السعي نحو الإنجاب، وهو ما نشهده في كافة المجتمعات علي مستوي العالم. فعندما نمعن النظر في بيئة مكونة من زوجين لديهما عدد من الأبناء، نجد أننا بصدد التعامل مع ممارسات جنسية قائمة علي الاستمتاع كعامل وكوسيلة لجذبهما تجاه عملية التكاثر، فالأمر مبني علي الاستمتاع بصورة رئيسية، وفي نفس الوقت تتخلل عملية التمتع بعض الممارسات الساعية نحو الإنجاب والتكاثر. في مجتمعات أخري، قد نشهد حالة من الحرص الشديد علي عملية الاستمتاع دون الرغبة في الإنجاب، مما يؤدي إلي نقص واضح في عدد الشبان والشابات. في نفس الوقت، قد نرصد حالة من الحرص الشديد

علي الإنجاب، والحصول علي قدر محدد من المتعة دون الانخراط في بيئة من السعي الدائم نحوها، وهو ما نشهده في بعض المجتمعات الروحية أو الكابتة لمصادر الإثارة الجنسية. يمثل التعبير الصريح عن تأصل فكرة الاستمتاع الجنسي أمراً غير مُحبب في الكثير من المجتمعات المحافظة، حيث أنه من الممكن أن تحفز -عملية التركيز علي الاستمتاع- الأشخاص نحو المزيد من الممارسات الخارجة عن منظومة الزواج، والتي تتبناها المجتمعات المحافظة بشكل رئيسي. وبالرغم من ذلك، من الممكن أن نرصد الكثير من الحالات المخالفة للقواعد الخاصة بمنظومة الزواج، والمنخرطة في ممارسة العديد من صور الانحراف الجنسي أو الخيانة الزوجية بصورة مستمرة. وقد تلحق عملية المخالفة الشخص بحالة من الاضطراب والتوتر بين الحين والآخر، مما يؤدي إلي الاصطدام بالدين والعادات والتقاليد، ليقع فريسةً للكثير من الضغوط والوساوس، وغالباً ما يتعرض المخالف لهذه الحالة في فترة متأخرة بصورة مباشرة ومؤثرة. بالطبع، ترتبط عملية التكاثر بإرضاء داخلي يسعي الشخص نحو تحقيقه علي المدى البعيد، ومن الممكن للفرد المعارض لفكرة الإنجاب أن يتغير رأيه في لحظة من الزمان، وحينها

تطفو الدوافع العميقة والكينونة المُعقدة للجنس البشري علي السطح بشكل واضح، وظاهر. في الحقيقة، تتكاتف مفاصل الغريزة معاً بشكل كبير ومؤثر، حيث يعتمد الجنس علي التكاثر والمتعة بالتبادل، ولا يمكننا أن نقلل من شأن أحدهما أو نرفع من شأن الآخر، حيث يعملان معاً بانسجام وتكامل من أجل إرضاءات بشرية غريزية خالصة.

الإيروتيكا والعقل البشري

تمثل الإيروتيكا الجانب الجمالي للغريزة الجنسية والمشاعر المرتبطة بترقب الانخراط في ممارسة النشاط الجنسي، وتعبر عن الأحاسيس الجنسية المختلفة التي تسيطر علي الذكر والأنثى بصورة مبنية علي الترقب واللهفة. ومن الضروري أن نفرق بين الإباحية "البورنو" والإيروتيكا، وأن نوضح الاختلافات الجوهرية بينهما، حيث تخلو الإباحية من عملية الاهتمام بالجانب الجمالي للغريزة الجنسية، لكنها تعتمد بشكل رئيسي علي الإثارة المباشرة المبنية علي التعري الكامل والاندماج العميق، بينما تصبو الإيروتيكا إلي الإثارة معتمدةً علي إظهار الجانب الجمالي للغريزة، والانخراط في بيئة من الإيحاءات والحركات الجنسية المعتمدة علي التدرج بشكل كبير. تتدرج الإيروتيكا بشكل متصاعد منتهيةً ضمن الإطار العام للتوظيف الجنسي المعروف "بجنس الفانيلا"، والملتزم بالصورة التقليدية للممارسات الجنسية التي لا تخرج عن السلوك المألوف أو النمط المعتاد من قبل الشخص العادي. بالنسبة للبورنو، فإننا بصدد التعامل مع كافة الأنماط المتعلقة بالنشاط الجنسي لتشمل التجربة الممارسات السوية وغير السوية دون تفرقة واضحة أو قيود محددة. ومن هنا يتصاعد الإطار الخاص بالتوظيف الجنسي عبر الإباحية ليتجاوز بشكل واضح إطار

الفانيلا، وليرصد الكثير من الممارسات الجنسية المعتمدة علي العنف أو فقدان التوازن بين مفاصل العلاقة المتبادلة. تعمل غالبية الأعمال الفنية والسينمائية والأدبية ضمن إطار الإيروتيكا، حيث تعتمد علي التدرج الفعلي للتجسيد الغريزي دون التطرق إلي التجسيد العميق أو الكامل. تتضمن الكثير من الأعمال السينمائية قدراً كبيراً من التعري والممارسات الجنسية بأشكالها المختلفة، لكنها في نفس الوقت بعيدة كل البعد عن حجم التعمق المُتعمد من قبل منتجي الأفلام الإباحية، والتي تصبو في الأساس إلي عرض التجربة الكاملة. من الممكن أن نرصد عدداً من الأفلام السينمائية القليلة الراصدة للسلوك الإيروتيكي والمتدرجة في الإطار السردي لتصل به إلي حالة من التجسيد الإباحي الكامل، وقد نرصد عدداً أقل من الأفلام السينمائية المتجاوزة للسلوك الإيروتيكي والواصلة به إلي الإباحية غير التقليدية والبعيدة عن ممارسات الفانيلا المُعتادة والمألوفة. وبالنسبة للإطار الأدبي، فمن الممكن أن نقرأ "الروض العاطر في نزهة الخاطر" للنفزاوي، ومن الممكن أيضاً أن نقرأ "قصة أو" لبولين رياج. وعندما نتأمل كتاب النفزاوي، نجد أننا بصدد التعامل مع كتاب جنسي تعليمي مبني علي الإرشادات الجنسية السوية والمعتمدة علي

النمط التقليدي المعياري المُعتمد من قبل السلوك البشري الجنسي المألوف، حيث يعمل الرجل علي التحدث ضمن الإطار الجنسي السوي البعيد عن أشكال السادية والمازوخية، وغيرها من الممارسات المتعلقة بالخطل الجنسي أو البارافيليا. يقول في بداية كتابه: "الحمد الله الذي جعل اللذة الكبرى للرجل في فروج النساء وجعلها للنساء في أيور الرجال. فلا يرتاح الفرج ولا يهدأ ولا يقر له قرار إلا إذا دخله الأير والأير إلا إذا دخل بالفرج. فإذا اتصل هذا بهذا وقع بينهما النكاح والنطاح وشديد القتال. وقربت الشهوتان بالتقاء العانتين وأخذ الرجل في الدك والمرأة في الهز، بذلك يقع الإنزال. الحمد الله الذي جعل لذة التقبيل في الفم والوجنتين والرقبة والضم إلى الصدر ومص الشفة الطرية مما يقوي الأير في الحال. الحكيم الذي زين بحكمته صدور النساء بالنهود والرقبة بالقبلة والوجنتين بالحرص والدلال. وجعل لهن عيونا غانجات، وأشفارا ماضيات، كالسيوف الصقال. وجعل لهن بطونا متعقدات وزينهن بالصورة العجيبة والأعكان والأخصار والأرداف الثقال وأمد الأفخاذ من تحت ذلك وجعل بينهن خلقة هائلة شبيهة برأس الأسد في العرض إذا كان ملحما ويسمى بالفرج. فكم من واحد مات عليه حسرة وتأسفا

من الأبطال! وجعل له فما ولسانا وشفتين فأشبه وطأ الغزال في الرمال. ثم أقام ذلك كله على ساريتين عجيبتين بقدرته وحكمته ليستا بقصار ولا بطوال. وزين تلك السواري بالركبة والغرة (الفارة) والعقب والعرقوب والكعبة والخلخال وأغمسهن في بحر البهاء والسلوان والمسرة بالملبس الحقيقي والمحزم البهي والمبسم الشهي". في هذه الحالة قد نصنف هذا الكتاب ضمن الإطار التعليمي، لكن الأمر يرتبط بالتجربة الشخصية والرؤية الفردية، حيث أنه من الممكن لشخص ما أن يتجاوز بخياله هذه الكلمات، ويخرج بها عن الإطار الجنسي التعليمي، ويأخذها إلي المستوي الإيروتيكي، وحينها يجعل منها مصدراً للإثارة والتحفيز. ومن الممكن أن نمارس عمليةً مشابهةً فيما يخص رواية "قصة أو"، حيث يصنفها البعض ضمن الروايات الإيروتيكية بينما يأخذها البعض الآخر إلي مستوي الروايات الإباحية كنتيجة لوجود بعض الصفحات المتضمنة لعدد من السلوكيات المُصنفة ضمن السادية والمازوخية. من الضروري أن أوضح التفاوت المُلاحظ في الرؤية الفردية المتعلقة بالأمر ككل، حيث يري البعض أنه من الأفضل ألا نعامل السادية والمازوخية ضمن الإطار الإباحي، ومن الأفضل أن نرصدهما ضمن الإطار الإيروتيكي تحت

مسمي "الإيروتيكا العنيفة"، لكن هذه الرؤية بعيدة كل البعد عن الصواب، حيث يؤدي العنف إلي فقدان الجانب الجمالي المتمثل في الإيروتيكا بشكل عام. وإذا قمنا بتقسيم اندماجية العقل البشري مع الجنس الآخر -وأقصد بالآخر الذكر أو الأنثى منعاً للانخراط في صراع شرس مع سيمون دو بوفوار- إلي ثلاث مراحل، لوجدنا أنفسنا أمام درجات أعلي من الوضوح فيما يخص الإيروتيكا، والتفاعل البشري معها. تُسمي المرحلة الأولي بالمرحلة النمطية أو الطبيعية والتي تمثل العقل البشري في تعامله النمطي مع الجنس المقابل، وتُسمي المرحلة الثانية بالمرحلة الإيروتيكية والتي تعمد إلي استخدام الجنس المقابل كوسيلة للإغراء وكمصدر لتحفيز الغريزة، وفي النهاية نجد أنفسنا بصدد التعامل مع المرحلة الثالثة المعروفة بالمرحلة الإباحية والتي تعمد إلي التعامل مع الجنس المقابل كوسيلة للإشباع الغريزي التام بكل عناصره وأشكاله. فعندما تمر امرأة جميلة أمام مراهق صغير، يخبره المجتمع بضرورة اتخاذ السلوكيات اللائقة وإتباع أنماط اللياقة المختلفة والحفاظ علي المساحة الشخصية الخاصة بها. بالطبع، قد يحترم المراهق هذه الإرشادات المتحضرة، والتي من شأنها أن تؤدي إلي سيادة أجواء الحب والاحترام،

لكنه في نفس الوقت قد يتجاوز بعقله المرحلة الطبيعية، وينتقل به إلي الخيالات الإيروتيكية، وقد يصل إلي المرحلة الأخيرة المتمثلة في الخيالات الإباحية. كما أنه من الممكن أن يتجاوز كل هذه المراحل النظرية، ويتجه إلي المرحلة التطبيقية المتمثلة في التحرش الجنسي؛ تلك الظاهرة المنتشرة بكثرة في المجتمعات المختلفة، والتي قد نشهدها في المجتمعات المحافظة كنوع من التعويض وفي المجتمعات المتحررة كنوع من الرفاهية. وبالنسبة للإيروتيكا المُجسدة عبر اللوحات الفنية، تتجلي صورها من خلال الأعمال الفنية الخاصة بجوستاف كليمت، والذي اعتمد علي الجسد الأنثوي باستمرار عبر لوحاته المختلفة، وعمل علي إضفاء الطابع الجنسي علي كثير من لوحاته، خاصةً اسكتشاته المتعددة. ومن الممكن أن نرصد أعمال إيجون شيلي ضمن نفس الإطار الإيروتيكي، حيث تعمد لوحاته إلي الاستخدام المتكرر للطابع الجنسي، والتعبيرات الإيروتيكية الواضحة، والتي قد تصل إلي الإباحية في بعض الأحيان، وفقاً للمنظور البرجوازي المُعتمد في عصره. كما يعمد إلي النظرة السوداوية القاتمة فيما يخص عملية التجسيد الخاصة بالإناث، حيث يبتعد عن الزخرفة الخاصة بأستاذه "كليمت"، ويتجه إلي التعبيرية الألمانية، والتي تهتم بما يدور في عقل

الإنسان، وتجنح إلي المخاوف المسيطرة عليه، ولذلك نجد الأشخاص في لوحاته أشبه بالأشباح، ونجد النساء في صوره مفتقرة لمعايير الجمال الأنثوي المُعتادة. وربما تنجم هذه النظرة المتشائمة عن خوفه الدائم من الإصابة بمرض الزهري، والذي فتك بعائلته الواحد تلو الآخر، وقد أدت هذه الحالة إلي قلقه الدائم من النساء والجنس لتصل به إلي درجات عالية من الهوس. وقد تدمج الأعمال الفنية الإيروتيكا مع استايل الجروتيسك، لتجمع بين اللمسات الفنية للغريزة الجنسية، والفن السوداوي المستمد لروحه من بين أحضان الغرابة والخيال. وقد تمثل "الإيروجرو - نانسينس"، تلك الحركة الفنية المنتشرة في اليابان في العشرينيات والثلاثينيات، مثالا معبرا عن كلماتي السابقة. ومن الممكن أن نرصد عملية الدمج بين الإيروتيكا، والجروتيسك بصورة أفضل وأعمق من خلال الأعمال الفنية الخاصة بالأمريكي ويليام مورتنسن، والتي تعمد إلي عملية الدمج المباشر بين اللمسات الشبقية، والتأثيرات الخيالية المبنية علي الغرائبية بشكل ظاهر وواضح. إن للتأثيرات الإيروتيكية سطوة واضحة علي العقل البشري جنباً إلي جنب مع الخيالات المرتبطة بها، والمعتمدة بشكل رئيسي علي التدرج الفعلي للأحاسيس والمشاعر المتعلقة

بترقب الانخراط في ممارسة النشاط الجنسي. ومن الضروري أن ندرك البيئة المسيطرة علي المراهق في البدايات، والتي تعمد إلي التدرج والتلاعب بأحاسيسه الجنسية، حيث تراوده الكثير من التغيرات المتمثلة في ارتفاع ضربات القلب عند التعرض الأول لأي سلوك إيروتيكي أو المحاولة الأولي للتعرف علي جسد الجنس الآخر أو الخيالات الجنسية المسيطرة علي عقله بين الحين والآخر، والتي قد تسيطر عليه أثناء النوم أو قبله مباشرةً أو أثناء عملية الاستيقاظ. تؤدي هذه الخيالات إلي الاحتلام اللاإرادي أثناء النوم أو ممارسة الاستمناء فيما بعد، وهو ما يؤكد علي عملية التدرج المسيطرة علي النشاط الجنسي، حيث تختلف سرعاتها بين البشر وبعضهم البعض، وفقاً للبيئة والسلوك والتجربة. بالطبع، يتطور النشاط الجنسي بشكل متدرج ليصل في النهاية إلي حالة من التكيف التام حينما يعتاده المخ، ويعمل علي تطبيقه بالشكل الكامل، حيث يشعر المراهق الصغير بالتوتر في البدايات حينما ينخرط في ممارسة الاستمناء لكنه يتكيف مع ذلك علي المدى البعيد ليزول عنه هذا التوتر بشكل كبير، وقد يتجاوز هذه المرحلة لينخرط فيما بعد في ممارسة الجماع الكامل، وحينها تراوده حالة من التوتر في البدايات لكنه يتكيف معها علي مدار الوقت، لتصبح أمراً عادياً بالنسبة

للمخ، والذي يعمل علي تبني عملية التكيف بشكل مستمر. ومن الضروري أن أوضح أن عملية التكيف تساعد المرء في التخلص من اضطرابات الأحاسيس الأولي لكنها لا تؤثر علي العملية الجنسية نفسها إلا بعد فترة مطولة من الزمان. وقد تصل هذه الحالة من التكيف إلي درجةٍ عاليةٍ من التطبيق، لتخلق حالة من الانفصال البيولوجي بين الشريكين، وليسعي كل منهما للبحث عن شريك آخر أو ليلجأ أحدهما إلي الخيانة. وبالنسبة للحركات الإيروتيكية، فإنها قادرة علي التلاعب بالبيئة المزاجية للفرد، وحينها تتصاعد درجات الليبيدو، ويزداد معدل ضربات القلب كنتيجة مباشرة للكثير من التغيرات الهرمونية، والتي تتضمن ارتفاعاً في النورادرينالين "النورايبنفرين" بصورة مؤكدة. ترتبط الليبيدو بالتستوستيرون، والإستروجين، والبرجسترون، والسرتونين، والأوكستوسن، والنورايبنفرين، والأستايلكولين. كما تتصل بالحالة النفسية والمزاجية بشكل مباشر، حيث أنه من الممكن لليبيدو أن تنخفض بشكل كبير وواضح عند المكتئبين أو المحاطين بالمشاكل، وتخبرنا الملاحظة التجريبية بحقيقة وصولها إلي أقصي درجاتها عند الذكور في فترة المراهقة بينما تصل إلي أعلي الدرجات عند الإناث في الثلاثينات، لكننا علي علم

بصعوبة عملية الرصد الخاصة بالتعرف الفعلي علي مستويات التستوستيرون والإستروجين المؤثرة علي الشهوة الجنسية عند الفرد، حيث أنها تتدرج وتتنوع بشكل واضح وكبير. لكنني أؤكد علي حيوية التأثير الإيروتيكي المقترن بفترة العشرينات، والتي تملأها الإثارة والفضول والتعرف قبل أن يصل العقل البشري إلي درجات أعلي من التكيف والإدراك.

الجنس والعاطفة والأنيما والأنيموس

يري الكثيرون أن الجنس هو التعبير التام عن الحب والمشاعر العاطفية، حيث تعمل العاطفة البشرية علي إعداد وتحضير البيئة اللازمة للانخراط في الممارسة الجنسية. يحتاج البعض إلي الانجذاب العاطفي قبل الانخراط في الممارسة الجنسية، ويحتاج البعض الآخر إلي الانخراط في الممارسة الجنسية قبل التعرض إلي البيئة العاطفية. ومن الممكن أن نصف السلوك البشري بالمُعقد، ومن الممكن أن نصنف النشاط الجنسي والعاطفي للإنسان ضمن الجزء الأكثر تعقيداً منه، حيث يصعب الفصل بين الجنس والعاطفة؛ لأننا نعلم أنهما يكملان بعضهما البعض ويعملان علي منح الشريكين التجربة الكاملة والمُستحقة. بالطبع، يتفوق الإنسان علي باقي الكائنات من خلال العاطفة والعلاقات الطويلة المبنية علي التبادل العاطفي والتعبير الكلامي والتواصل الحسي، وربما نجد شيئاً من هذا القبيل في الحيوانات لكن بدرجة بسيطة للغاية وفقاً لبعض الدراسات الحديثة. تعمل العاطفة ضمن الإطار التدريجي المؤدي إلي الممارسة الجنسية، كما تصبو إلي تكوين بيئة من الحب والرعاية المتبادلين بين الشريكين بشكل دائم ومستمر، حيث توفر للنشاط الجنسي بيئةً أكثر أماناً واستقراراً علي المدى البعيد، كما تعمل علي تفعيل البيئة الطبيعية المناسبة

للتكاثر والإنجاب للراغبين في ذلك. يقول كارل جوستاف يونج: "كل رجل هو رجل وامرأة في نفس الوقت، وكل امرأة هي امرأة ورجل في الوقت نفسه"، ويعتمد في كلماته علي فكرة "الأنيما والأنيموس"، حيث تمثل الأنيما المرأة في الرجل، ويمثل الأنيموس الرجل في المرأة. يري يونج أن القطب الأنثوي "الأنيما" يظل خفياً عند الرجل، وأن القطب الذكوري "الأنيموس" يظل خفياً عند المرأة، ومن هنا يكمن السر القابع خلف الحاجة الملحة المسيطرة علي الذكر لتكوين علاقة مع الأنثى، والمهيمنة علي الأنثى لتكوين علاقة مع الذكر، حيث يعمل الذكر علي إشباع الجانب الخفي منه من خلال الممارسة التطبيقية المبنية علي البحث عن الأنثى والعمل علي تكوين علاقة معها، وفي نفس الوقت تعمل الأنثى علي إشباع الجانب الخفي منها من خلال الممارسة التطبيقية المبنية علي البحث عن الذكر والعمل علي تكوين علاقة معه. كما يري أن الأنيما "القطب الأنثوي" تمثل الجزء الإبداعي المرتبط بالذكر، والذي يعمل علي تحفيزه وحثه علي المضي للأمام، وينظر إلي الأنيموس "القطب الذكوري" علي أنه الجزء الإبداعي المرتبط بالأنثى، والذي يعمل علي تحفيزها وحثها علي المضي للأمام. ومن الضروري أن نوضح الحقيقة المتمثلة في عدم توافر

الصورة المثالية القادرة علي تحقيق الإرضاء التام بالنسبة للطرفين، فمن الصعب أن يعمل الذكر علي إرضاء الجزء الخفي منه المتمثل في الأنيما بشكل كامل، ومن الصعب أيضاً للأنثى أن تعمل علي إرضاء الجزء الخفي منها المتمثل في الأنيموس بشكل مثالي. ومن الممكن أن نرصد الكثير من حالات التنافر والصراع بين الذكور والإناث بعد الارتباط العاطفي بينهم، وهو ما يؤكد علي حقيقة عدم توافر الشريك الكامل القادر علي تحقيق الإرضاء التام، ومن هنا يغادر الشريكان بعضهما البعض، ويبحثان عن علاقات جديدة سعياً وراء عملية الإرضاء الكامل، لكنهما سريعاً ما يقعان في الشرك من جديد. تعمل منظومة "الأنيما والأنيموس" ضمن منظومة أكبر وأوسع تُعرف بنظرية "اللاوعي الجمعي" المُعتمدة من قبل يونج، حيث يعتبر الرجل الأنيما والأنيموس بمثابة النموذجين الرئيسيين والأوليين لبيئة "الأنثروبومورفزم" المُعتمدة من قبل العقل اللاواعي. كما يؤكد علي حقيقة أن العقل اللاواعي لا يتكون فقط من الغرائز البشرية والأفكار المكبوتة (وفقاً لفرويد)، لكنه يضم أيضاً صوراً ونماذجاً سلوكيةً متعددةً وبيئات مستقبلة للأنماط السلوكية المختلفة، ويري أن هذه النماذج

مُتاحة للجنس البشري بأكمله، وتكمن صورها الأولية في الأنيما والأنيموس.

سيكولوجية التعري وربط القيمة بالجسد

أريد أن أتطرق في بداية هذا الفصل إلي بعض النماذج الأولية المتعلقة بعملية التعامل مع الجسد بشكل عام، وأرغب في طرح بعض الأسئلة المتعلقة بالإطار الكلي للموضوع. هل تشعر المرأة بقيمة من نوع ما حينما تكشف عن جسدها؟ وهل يشعر الرجل بقيمة محددة حينما يكشف عن عضلاته المفتولة؟ وهل يتعلق الأمر بالوهم أم يندرج ضمن بيئة سيكولوجية مبنية بشكل واضح علي أسباب علمية مُحددة؟ وهل تندرج هذه السلوكيات ضمن البيئة الطبيعية للنشاط البشري أم لا؟ .. بالطبع، تندرج هذه القوالب والنماذج ضمن النشاط البشري الطبيعي لكنها لا تُمارس ولا تُعتمد من قبل الجميع، وربما تتضمن بعضاً من النرجسية أو محاولة الإحساس بالنفس، وربما يرجع الأمر ببساطة إلي الحاجة الملحة المسيطرة علي الكثيرين والكثيرات خاصةً أثناء فترة المراهقة، والتي تتمثل في سعيهم وسعيهن الدائم نحو الإحساس بأنهم مرغبون وأنهن مرغوبات. ومن الممكن بشكل ساخر، أن نرصد سلوكيات بعض المراهقات الصغيرات المتمثلة في إخبار الجميع عن حجم المعاكسات اللاتي يتعرضن لها باستمرار أو أن يقفن أمام المرآة ممتدحاتٍ أجسادهن، ومتأملاتٍ فيهن أو أن يعملن علي المقارنة بينهن وبين صديقاتهن بشكل

مستمر ودائم. وفي نفس الإطار، من الممكن أيضاً أن نرصد سلوكيات بعض المراهقين المتمثلة في التفاخر بحجم العضلات أو الاهتمام بحجم اللحية أو العمل علي إظهار الجوانب الذكورية المختلفة بشكل عام. وتُصنف هذه الصور المختلفة للسلوك الذكوري والأنثوي ضمن الإطار الطبيعي للنشاط البشري، وقد تتأرجح بعضها بين النرجسية الصحية والنرجسية المرضية بشكل كبير، فمن الممكن لامرأة نرجسية أن تستخدم جسدها وملابسها وتأنقها كوسيلة للشعور المبالغ فيه بالنفس، وقد تستخدم امرأة أخري نفس المقومات ضمن الإطار الطبيعي للسلوك البشري وضمن النرجسية الصحية المعتمدة علي التوازن بين الهو والأنا والأنا العليا. ومن الممكن أن نشهد حالات مباشرة لاستخدام الجسد الأنثوي كوسيلة لجلب المال، وخلق القيمة المبنية في أساسها علي الوهم والخيالات. فمن الممكن أن نعمد في تحليلنا النفسي إلي عارضات الأزياء أو المغنيات المعتمدات بشكل واضح علي استخدام الجسد كوسيلة للعرض وجني الأرباح. وعندما نتأمل جلسات التصوير المتعلقة بالكثيرات منهن، نجد أنفسنا بصدد التعامل مع عملية تسليع واضحة وظاهرة بصورة فجة، لكنني أرغب في التطرق إلي عملية التحليل النفسي

المتعلقة بعارضة الأزياء نفسها، ففي إحدى الجلسات التصويرية الخاصة "ببيرلي كالندر"، نجد أنفسنا بصدد التعامل مع الموديل "روزي هنتنتون وايتلي" في إطار مبني علي الكشف والتصفيق في المقابل، فكلما بالغت في التعري، صفق لها فريق التصوير المعتمد في نواته علي الذكور، وهو ما يتماشي في نفس الوقت مع ضحكاتها المتعالية، وسعادتها البالغة. من الممكن أن نتطرق إلي نقطتين فيما يخص عملية التحليل الخاصة بالبيئة السابقة موضع الدراسة، وتتمثل النقطة الأولي في السلوك نفسه المتمثل في سعادتها الشديدة المتدرجة والمقترنة بعملية التصفيق والتركيز المُمارسة من قبل المصور وفريق العمل، حيث تشبه هذه الحالة سعادة الطفل البالغة حينما نحيطه بالتصفيق المقترن بفعل طيب قد قام به، وكلما صفقنا له، ازداد في ممارسة فعله وعمل علي المبالغة فيه، ولهذا قد يمثل السلوك السابق والمتعلق بالطفل نموذجاً أولياً لهذه السلوكيات المتطورة والمبنية في أساسها علي مبدأ المكافأة والنشوة المصاحبة لها. وتتمثل النقطة الثانية في تحليل المنظومة العقلية للموديل نفسها، حيث تشعر بالنشوة والسعادة كنتيجة مباشرة لانتظار المكافأة، وهو ما يصنفه عقلها علي أنه انتصار من خلال إحساسها بالقيمة والأهمية المُستمدتين من نظرات الذكور وتصفيقهم لها.

يرتبط الأمر بشكل رئيسي بجني الأموال والحصول علي الشهرة، وفي نفس الوقت لا نجدها ممتنعةً أمام عملية الانتعاش الحسية والمتعة المرتبطة بالعمل والمعتمدة علي تحريك غريزتها وغرائز غيرها الدفينة. هنا نجد أنفسنا بصدد التعامل مع استخدام صريح للجسد كوسيلة لجني المال وتحقيق الشهرة وإدراك المتعة الحسية والشعور بالنفس، لكن من الضروري ألا نعمد إلي عملية التعميم فيما يخص هذا الإطار، حيث ترفض الكثير من النساء الانخراط في مثل هذه البيئات، وترفض الكثير من النسويات الأمر برمته مدرجاتٍ إياه تحت بند التسليع، وفي نفس الوقت نجد بعضهن مؤيدات له باعتباره وسيلة لدعم المرأة ومساعدتها علي الإحساس بنفسها. في الحقيقة، يختلف المنظور الخاص بعملية التعري والتسليع بين المجتمعات المختلفة مقترناً في نهاية الأمر بالنسبية والتنوع، لكنني أريد أن أصل إلي العمق معك -عزيزي القارئ- من خلال التطرق إلي عملية التحليل الخاصة بسيكولوجية التعري المُمارس من قبل متعريات النوادي الليلية، وبائعات الهوى، والممارسات للدعارة، والعاملات بالإباحية بشكل عام. في إحدى صفحات رواية "مذكرات من العالم السفلي" لفيودور دوستويفسكي، نجد بطل الرواية منخرطاً في حالة من

التعجب والتساؤل المقترنة بمهنة بائعات الهوى، حيث ينظر الرجل إلي الأمر برمته متعجباً ومتأملاً، ليقول: "كل هذا من أجل رغيف خبز، ورداء؟" .. ومن الممكن أيضاً أن نتأمل معاً المسلسل البرازيلي "أسرار إينجل"، والذي يعمل علي رصد يوميات الفتاة الجميلة "إينجل" التي تعمل في إحدى شركات الأزياء الشهيرة ببلدها لتوفر النفقات اللازمة لعائلتها، لكنها سريعاً ما تكتشف حقيقة الشركة الخفية وصلتها بعالم الدعارة. وبالرغم من ذلك، لا تقاوم الفتاة الإغراء القابع في طريقها لكنها تنساق وراء رغباتها الجامحة، والمتمثلة في الحصول علي أكبر قدر ممكن من المال. هنا تجد الفتاة نفسها منخرطةً في حالة سهلة من الإرضاء المادي المرتبط بحالة من الإرضاء الجنسي الأجوف والمُفرغ من العاطفة، وغالباً ما تلجأ إلي أحد زبائنها لتجعل منه شريكها العاطفي الدائم. في البدايات، تشعر بحالة من الاضطراب الشديد المصاحب لأولي تجاربها الجنسية مع الزبائن، ومع الوقت تصل إلي حالة من التكيف والاعتياد، وقد تصاحبها أحياناً بعض الأحاسيس والأفكار المتعلقة بقيمتها الفعلية في الحياة وبحقيقة المهنة المنخرطة في ممارستها. وينطبق الأمر نفسه علي متعريات النوادي الليلية والعاملات بالإباحية، وقد تنتقل الكثير من الأمراض

الجنسية إلي العاملات في هذه المجالات بشكل عام، وقد تلحق بهن الكثير من التقلبات النفسية المتمثلة في "اضطراب الكرب التالي للصدمة النفسية"، والذي يسيطر عليهن كنتيجة حتمية لحالات الاغتصاب والعنف اللاتي يتعرضن لها من بعض الزبائن بين الحين والآخر. وقد يرتبط الأمر بتجارب عنيفة سابقة، وقد ينجم عن مواقف من الاستغلال الجنسي قد تعرضن لها في صغرهن، وتتمثل الأعراض في القلق والتوتر والكوابيس والأرق واستدعاء الذهن للأحداث العنيفة بشكل مفاجئ بين الحين والآخر. من الضروري ألا نعمد إلي التعميم فيما يخص الأمراض الجنسية والاضطرابات النفسية التي تلحق بهن، حيث لا تتعرض الكثيرات منهن إلي هذه المشاكل كنتيجة لعملهن ضمن منظومة مبنية علي المراقبة الصحية المستمرة، ومعتمدة علي التعامل مع مستوي أعلي من الزبائن. وتمثل عملية التعري التام أمراً تقليدياً بالنسبة للعاملات بالمجال، ومن الممكن كنتيجة لذلك أن ندرجهن تحت الفكر الخاص بإيمانويل كانط، والمبني علي اعتبار الشخص المُجرد من ملابسه كوسيلة لتحقيق هدف معين، وكوعاء لتلبية الملذات، وإشباع الرغبات. وكنتيجة لذلك، تعمل مهنة الدعارة علي تحويل النساء إلي مجرد عناصر وأشياء،

وتسلبهن حريتهن الفكرية، وتحصر قيمتهن بأجسادهن، وتمنعهن من التفكير والتعبير، ولهذا تُعد الدعارة عدواً رئيسياً لمعظم النسويات، واللاتي يعملن باستمرار علي السعي نحو الارتقاء بالمرأة.

الموت الصغير والتجربة الروحية والسعي الذكوري نحو التعددية

إن أحمر الشفاه الذي تضعه الأنثى، ودرجات التعري التي تعمد إليها، والاضطرابات الكثيرة المصاحبة لطبيعتها، والتوترات المتعددة التي تبديها وتظهر علي ملامحها بين الحين والآخر، والغيرة المُمارسة من قبلها تجاه ذكرها والغيرة المُمارسة من قبله تجاهها، ووضعيات الكاما سوترا والكاوبوي والمقصات، وفتيات الفانيلا والشوكولا، والقبلات الفرنسية والقبلات السوداء، وصراعات المراهقين والمراهقات، ومراسلات الصغار والصغيرات، ومناوشات الجناتل والآنسات، وكل هذه التدرجات والتوترات والتشاحنات .. إنما تهدف في نهاية المطاف إلي إدراك الذروة الجنسية أو النشوة الجنسية أو "الأورجازم"؛ ليُدرك الهدوء الحسي بعد التشاحن النفسي. يطلق الفرنسيون علي "الأورجازم" مصطلح "الموت الصغير"، حيث يمثل فقداناً قصيراً للوعي والإدراك، كما يرون أنه يشبه إلي حد كبير إحساس الموت أو الاختفاء أو مغادرة العالم بشكل عام، ويصفه الكثيرون بالتجربة الروحية، ويري آخرون أنه يمثل تحريراً سريعاً لطاقات الإنسان الروحية، ويعمل علي تجديد طاقاته الدفينة. ينظر البعض إلي الأمر علي أنه موت جزئي للنفس، ويري البعض الآخر أنه يمثل النشوة في قمتها والمتعة الحسية في أوجها ضمن

الإطار الطبيعي للجسد البشري ودون أي عوامل دخيلة، ويتمثل الأمر برمته في تفريغ الطاقة الإيروتيكية المُجمعة، وتحريرها عبر الوصول للقمة وإتباعها بعملية الاسترخاء اللاإرادي. وبالرغم من ذلك، قد تلي الذروة الجنسية في بعض الأحيان حالة من الحزن والكآبة، والتي تُعرف باسم "انزعاج ما بعد الذروة" أو "انزعاج ما بعد الجماع"، وغالباً ما تعود إلي الانخفاض السريع بمعدل الدوبامين بعد الارتفاع الكبير المسيطر علي مستواه، والمتعلق بالأورجازم. ومن الممكن أن نتعرف علي الأورجازم بشكل أوضح من خلال التطرق إلي العملية الجنسية الكاملة والتغيرات المصاحبة لها عبر التعرض للنموذج الخاص بماسترز، وجونسون. تتمثل المرحلة الأولي "مرحلة الإثارة" في توتر العضلات، وارتفاع ضربات القلب وضغط الدم، وزيادة معدل التنفس، وانتصاب حلمة الثدي، وضخ الدماء إلي الأعضاء التناسلية بصورة واضحة في القضيب والبظر، وزيادة إفرازات المهبل، وانتفاخ الشفرين، وزيادة حجم الثديين، وتمدد اللعوتين، وانتفاخ الخصيتين، وشد كيس الصفن، ويختلف الأمر بين البشر وفقاً للصحة الجنسية العامة، والعمر، ودرجة الليبيدو. وتتمثل المرحلة الثانية "مرحلة البلاتو/ العتبة" في عملية

الاستمرارية المتعلقة بالإثارة الجنسية، والشعور بدرجات من السعادة، وتشنجات القدم واليد والوجه، وزيادة معدلات ضربات القلب وضغط الدم والتنفس، وزيادة حساسية البظر، وارتداد الخصيتين داخل كيس الصفن، وامتلاء الثلث الخارجي من المهبل بالدم وتغير لونه إلي اللون البنفسجي القاتم، وتمثل هذه المرحلة حالة من الاستمرارية دون تغيرات جذرية واضحة. وتتمثل المرحلة الثالثة "مرحلة الذروة/ هزة الجماع"، والمعروفة بكونها الأقصر، في الانقباض التلقائي للعضلات والأقدام، ووصول ضربات القلب والضغط ومعدل التنفس إلي القمة، وتورد الجسد، وتحرر التوتر العضلي لاحقاً، وتتواصل الانقباضات والتقلصات لتشمل المهبل والرحم، والذي ينخرط في العديد من التقلصات، بينما تحدث الانقباضات عند الذكر في قاعدة القضيب، وحينها يتحرر السائل المنوي. وتتعرض الأنثي إلي مدة أكبر من الأورجازم مقارنةً بالذكر لكنهما يتعرضان لنفس الأحاسيس دون فرق واضح بينهما، وفقاً للكثير من الأبحاث العلمية الموضحة لذلك. وتتمثل المرحلة الرابعة "مرحلة الاسترخاء" في العودة بالجسد إلي الحالة الأصلية السابقة لعملية الإثارة، وعودة أجزاء الجسم إلي الحجم الطبيعي،

وتصاحب هذه المرحلة حالة من الحميمية، والإحساس بالنفس، والإجهاد. يصل الذكر بعد ذلك إلي دور الحران أو فترة العصيان، والتي تمنعه من الاستجابة للمزيد من المثيرات، وتعمل علي منع الانخراط في المزيد من الهزات كنتيجة حتمية لإفراز الأوكسيتوسن والبرولاكتن، وتختلف الأبحاث حول حقيقة تعرض الأنثي لفترة العصيان؛ حيث تشير الكثير منها إلي عدم تعرضها إلي أي حالة من العصيان مما يسمح لها ببعض الهزات الإضافية، بينما تشير أبحاث أخري إلي الوجود الفعلي لحالة العصيان بدليل تعرض الأنثي لدقيقة من عدم الاستجابة للمثيرات بعد الأورجازم. تُفرز الكثير من المواد أثناء عملية القذف عند الذكور، وتتمثل في النورادرينالين، والسرتونين، والأوكسيتوسن، والفاسوبرسن، والنيتريك اوكسيد، والبرولاكتن، والذي يشعرهم بالحاجة إلي النوم خاصةً بعد الجماع؛ حيث يُفرز البرولاكتن بمعدلات أكبر بعد الجماع مقارنةً بالاستمناء، ويندرج الأوكسيتوسن والفاسوبرسن تحت نفس البند أيضاً. وتُسمي القدرة علي المرور بحالة الذروة الجنسية بالقدرة الإرجازية وفقاً لرايش، وتصل المرأة إلي الذروة بشكل فعال عبر ملامسة البظر، والجي سبوت بينما تساعد ملامسة

حشفة القضيب "رأسه"، والبي سبوت الذكر علي الوصول إليها بفعالية أيضاً، ويتفق أغلب العلماء حول فعالية ملامسة البظر، ورأس القضيب، ويختلفون حول الجي سبوت، والبي سبوت حتي يومنا هذا.

بالطبع، تُفرز الكثير من المواد المتعلقة بالممارسة الجنسية لتُتوج بالدوبامين، والأوكسيتوسن، والهرمونات المخففة للآلام والمهدئة بشكل عام، ويُفرز السرتونين بعد الجماع بكثرة، وحينها تتعالي درجات السعادة والتمتع ليشعر الذكر والأنثى بالحب والحميمية في أفضل صورة ممكنة. وبالنسبة لعملية الرصد الخاصة بالسعي الذكوري نحو التعددية، فمن الممكن بسهولة أن ندرك الحقيقة المتمثلة في أنها لا تستمد فكرتها من أسباب علمية مُحددة لكنها تعتمد في أساسها علي الملاحظة والمراقبة للنشاط الذكوري بشكل عام. كما أنها لا تعمد إلي التعميم الأهوج بل تتطرق إلي الأمر معتمدةً علي الرصد المتكرر للعينات الذكورية دون الاعتماد علي التصنيف الأعمى والبعيد عن الموضوعية، حيث تشير بعض الإحصائيات المقترنة بأواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات في الولايات المتحدة إلي حقيقة أن 50 ٪ من الرجال الأمريكيين المتزوجين قد سعوا لممارسة الجنس خارج منظومة الزواج في فترات ما من حياتهم

في مقابل 10–16٪ من النساء الأمريكيات المتزوجات، وفقاً لألفريد كينسي. كما تسمح الطبيعة الجسدية الذكورية، والعدد اللانهائي للحيوانات المنوية بالانخراط في الممارسات العشوائية المتعددة، وفي نفس الوقت لا تسمح طبيعة الأنثي لها بذلك، وفقاً لأستاذ السيكولوجي بجامعة تكساس ديفيد بوس. وتشير الكثير من النظريات والأطروحات إلي عدم سعي الأنثى نحو التعددية مقارنةً بالذكور، وتؤكد علي سعيها نحو الحصول علي شريك واحد في أغلب الأحيان بينما يختلف الأمر بالنسبة للذكر، والذي تكمن التعددية بداخله، ويسعي لمقاومتها أو الاستسلام لها مع الوقت، وهو ما يرتبط بشكل مباشر بالمنظومة العقلية والمعتقدات الفكرية الخاصة بالفرد نفسه دون التطرق إلي التعميم.

عقدتا أوديب وإليكترا والإدراك الجنسي

يستخدم فرويد مصطلح "عقدة أوديب"، ضمن نظريته الخاصة بالتطور النفسي والجنسي للطفل الذكر، للتعبير عن المرحلة العمرية (3-6 سنوات)، والتي تتركز فيها الرغبة الجنسية في مناطق الإثارة الخاصة بالطفل "المناطق الإيروجينيسية"، حيث يشعر خلالها بالانجذاب الجنسي اللاواعي تجاه الأم والنفور من الأب. يرتفع فرويد بالنغمة ليخبرنا باعتقاده في انغماس الطفل في حالة من الخوف والقلق المتعلق بشعوره الدائم بأن أباه سوف يعمل علي بتر قضيبه في لحظة ما كنوع من العقاب، وحينها يلجأ إلي التكيف مع طبيعة أبيه ومعاملته كصديق بدلاً من معاملته كعدو، ويتعرض إلي هذا الشعور كنتيجة لإدراكه لغياب القضيب عند الأم مما يدفع به إلي هذه الحالة بشكل عام. تتطور سيكولوجية الطفل خلال هذه المرحلة لتعمد بعد ذلك إلي عملية الكبت والمنع، والتي من شأنها أن تعمل علي تعديل ميوله ووضعها في الإطار المضبوط عبر الاعتماد علي "الأنا العليا". وتستمد "عقدة أوديب" فكرتها من الأسطورة اليونانية المعبرة عن قتل أوديب لأبيه، وزواجه من أمه، وإدراكه لذلك لاحقاً، ليعيش في حالة من الحزن والكآبة، بينما تتمثل "عقدة إليكترا" – وفقاً لتسمية كارل يونج – في شعور الطفلة

الصغيرة (3–6 سنوات) بالانجذاب الجنسي اللاواعي تجاه أبيها، ونفورها من أمها وتكيفها معها لاحقاً، ويحلل فرويد الأمر من خلال وصفه للبيئة الأولية المحيطة بالطفلة، والمتمثلة في غيرتها الناجمة عن عدم امتلاكها لقضيب، مما يدفعها إلي لوم أمها كنتيجة لذلك. وتستمد "عقدة إليكترا" فكرتها من الأسطورة اليونانية المعبرة عن قتل الفتاة إليكترا لأمها لمشاركتها في قتل زوجها "والد إليكترا". يعتمد التحليل النفسي الكلاسيكي للأمر برمته علي عملية تحديد الهوية التي يعمد إليها الطفل أو الطفلة مع نفس الجنس من الوالدين، وحينها تُفعل عملية التخلص من عقدتي أوديب وإليكترا بشكل تام، بينما يصمم فرويد علي حل الأنثي لعقدتها من خلال "الغيرة من القضيب"، وحل الذكر لعقدته من خلال "خوفه من بتر قضيبه"، وإدراكهما للأمر والتكيف معه عبر "الأنا العليا" بشكل رئيسي. كما يري أن غياب القدرة علي التخلص من هذه الحالة قد يؤدي بالطفل أو الطفلة إلي التعرض لدرجات من "العصاب" علي المدي البعيد، ويعمد إلي استخدام مصطلح "العقدة الأوديبية" بشكل شامل، وملم، ليشمل كلتا العقدتين بشكل عام.

الكفاءة الجنسية والليبيدو

تختلف الرغبة الجنسية "الليبيدو" بين البشر بشكل كبير، وتتعرض للكثير من التغيرات والاختلافات والدرجات عبر حياة الفرد الواحد، وتتأثر بالكثير من العوامل البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية بشكل عام. وترتبط بالحالة النفسية للفرد بشكل مباشر، فمن الممكن للضغوط النفسية والاضطرابات العاطفية أن تنخفض بها إلي أقل درجة ممكنة، ومن الممكن أن يرتفع بها المرء إلي أفضل درجة متاحة عبر العمل علي توفير البيئة الهادئة والمفعمة بالطمأنينة والسلام وراحة البال. ومن الممكن أن تؤدي مقارنة الفرد بين مستوي الرغبة الجنسية في أول العلاقة، ومستواها في فترة لاحقة إلي حالة من القلق والتوتر، والتي تعمل علي خفض درجة الليبيدو بشكل مؤثر ومباشر. يتفاعل الذكور مع منظومة الرغبة الجنسية بشكل أسرع مقارنةً بالإناث، حيث تتفاعل البيئة الفسيولوجية للذكر بشكل سريع مع الإثارة الجنسية وترتبط عنده الليبيدو بالإثارة بشكل مباشر، بينما تتأثر الأنثى بالجزء السيكولوجي بشكل أكبر وتتفاعل مع البيئة المحيطة بها بشكل مفعم بالحساسية الزائدة ومحاولة التكيف. وقد تنخفض درجات الليبيدو كنتيجة لبعض التغيرات الهرمونية، وقد تهبط إلي أقل درجة ممكنة عند التعرض للكثير

من الضغوط النفسية أو التعرض لحالة من الاكتئاب أو الانخراط في نمط حياة تسيطر عليه الكثير من المشاكل والصراعات. كما ينجم عن – عدم التكيف بين الشريكين علي المستوي العاطفي، والنفسي، والفكري– حالة من الانخفاض التام لدرجات الليبيدو، ومن المعروف أيضاً أن التعرض للاستغلال الجنسي أثناء فترة الطفولة قد يؤدي بالفرد إلي حالة مماثلة. ومن الضروري أن نشير إلي التأثير المباشر للبيئة المحيطة بالأفراد علي درجات الليبيدو عندهم، حيث تؤدي البيئة المتحررة جنسياً إلي الارتفاع بدرجاتها عند الفرد مقارنةً بالبيئة المحافظة والملتزمة بقواعد مُحددة بخصوص الإطار الجنساني العام، حتي لو كان الأمر مُطبقاً علي المستوي الظاهري فقط في بعض الأحيان. بالطبع، تمثل الليبيدو إحدي الطاقتين المصاحبتين للإنسان عبر حياته، حيث يتمثل الإبداع والفن وحب الحياة في "الليبيدو"، ويتمثل الموت والروحانية في "المورتيدو". تمثل الطاقة المعبرة عن الرغبة الجنسية المصدر الرئيسي لاستمرارية الحياة البشرية ودوام الحرص عليها، وتشكل المنبع الأساسي للفكر البشري والإبداع الإنساني وحب الحياة والسعي نحوها بشكل عام، بينما تمثل "المورتيدو" الطاقة الكابتة لليبيدو والمانعة للاستمرارية والساعية نحو

الحياة الأبدية والمتجاوزة لحدود الجسد البشري وأبعاده المختلفة. بالطبع، تنخرط الطاقتان في حالة من الصراع الدائم علي مدار حياة الفرد، لتحيطه بحالة من المعاناة والتوتر، والتأرجح بين الحماسة والنشاط من جهة، والكمون والخمول من جهة أخري. وبالنسبة "للكفاءة الجنسية"، فمن الممكن أن نلخصها ببساطة في قدرة الفرد علي الانخراط في الممارسة الجنسية والتمكن من الاستمرارية والوصول إلي الذروة الجنسية "الأورجازم" في نهاية المطاف، وترتبط بالليبيدو، والتي تمثل الخطوة الأولي المهيئة للانخراط في الممارسة الجنسية، والتي تتطلب درجةً معينةً من الكفاءة والأداء بكل تأكيد. ويعتمد الأداء الجنسي للفرد علي العمر، والصحة الجسدية والنفسية، وأسلوب الحياة، وطبيعة البيئة المحيطة، ونوعية الطعام، ومدي نشاط الدورة الدموية، والهرمونات وتأثيراتها المختلفة علي الليبيدو، والكفاءة الجنسية بشكل مباشر. ومن الممكن أن نصل من خلال كلماتنا السابقة إلي الحقيقة المتمثلة في الاختلاف والتدرج بين البشر فيما يخص الليبيدو والكفاءة الجنسية، والمرهونتين بالاختلاف الواضح المهيمن علي العوامل المتنوعة المؤثرة عليهما بشكل عام.

الجنس والعنف

يتمثل العنف الجنسي في الممارسات الجنسية المبنية في أساسها علي الإكراه والإجبار، ويمثل الاغتصاب الجنسي أكثر الصور المعبرة عنه بأنواعه المختلفة وسياقاته المتعددة. تتعدد وتتنوع الأسباب القابعة خلف سلوك المغتصب، لتتمثل في الإسراف في الخمر والمخدرات، وكراهية النساء بشكل عام، والخروج عن القانون، وإدمان التعرض للمواد الإباحية، والعدوانية، والاضطراب العاطفي، والتعرض للاستغلال الجنسي في الصغر، واضطراب العلاقة مع العائلة، والفقر، وغياب القوانين الصارمة. ويؤدي الاغتصاب إلي العديد من العواقب الوخيمة والتأثيرات السلبية التي تلحق بالضحية المُغتصبة، لتتمثل في الإصابة ببعض الأمراض الجنسية، واضطرابات الأكل والنوم، والاكتئاب، والانعزالية، والخوف، والارتباك الدائم، والسعي نحو إيذاء النفس أو الانتحار في الحالات الشديدة. وبالرغم من سعي المجتمع المحلي والدولي نحو القضاء علي عمليات الاغتصاب الجنسي والعمل علي تطوير الشخصية والقضاء علي المشاكل النفسية والارتقاء بالفرد، إلا أننا قد نشهد حالات من الاغتصاب الجماعي المُمارس من قبل الجيوش في أوقات الحروب والصراعات ضمن إطار مفعم بالهمجية والعشوائية.

فمن الممكن أن نتذكر معاً حالات الاغتصاب المرافقة لمذبحة نانجينج، ومعسكرات الاغتصاب الجماعي بالبوسنة والهرسك، وهتك الأعراض بسجن أبو غريب، وحالات الاغتصاب المُعلنة وغير المُعلنة المتعلقة بالحرب العالمية الأولي والحرب العالمية الثانية، وغيرها من الأمثلة المعبرة عن همجية الإنسان وشروره المتشعبة. ومن الممكن أن ندرج "التحرش الجنسي" تحت بند "العنف الجنسي" أيضاً، حيث يمثل الأمر تعدياً علي حرية الآخرين ومساحتهم الشخصية، وقد يصل التحرش إلي مستويات عالية من التعدي والتطفل للدرجة التي تؤثر علي ضحية التحرش نفسياً وجسدياً ضمن إطار مفعم بالسلبية والقلق. وقد تعمد الكثير من المجتمعات إلي استخدام الميديا وإطلاق الحملات المتعددة بغرض القضاء علي العنف الجنسي، وقد تعمل علي إطلاق الكثير من برامج التوعية الداعمة للفكرة والمعبرة عنها بشكل دائم، كمحاولة للتقليل من انتشار العنف بأشكاله وأنواعه المختلفة.

المثلية الجنسية

تمثل المثلية الجنسية انجذاباً جنسياً وعاطفياً بين أشخاص من نفس الجنس (بين ذكرين أو بين أنثتين)، وغالباً ما يتم مناقشة موضوع المثلية ضمن الإطار البيولوجي والجيني والبيئي بشكل عام. وتشير بعض الأبحاث العلمية إلي حقيقة ارتباط المثلية الجنسية بالكثير من العوامل البيولوجية والجينية والبيئية، وتوضح أن الأمر لا يُعد اختياراً بالنسبة للشخص لكنه يمثل ميلاً طبيعياً ضمن الميول الجنسية المختلفة، وهذا ما يعمد إليه الغرب الأوروبي والأميركي في وقتنا الحالي، ويستخدمه كوسيلة لمنح المثليين الكثير من الحقوق والحريات مقارنةً بالفترات السابقة، بينما تشير بعض الأبحاث الأخرى إلي حقيقة عدم ارتباط المثلية الجنسية بالعوامل البيولوجية أو الجينات، لكنها ترتبط بالعديد من العوامل غير الجينية مثل البيئة المحيطة والتنشئة وشخصية الفرد نفسه، وهذا ما يتوافق مع المنظومة الدينية والمجتمعية في عدد من المجتمعات حول العالم، والتي تري أن الأمر يمثل اختياراً شاذاً وضرباً من الرفاهية وطيفاً من الخروج عن الطبيعة السوية للإنسان. ومن الضروري أن نشير إلي وجود عدد من المعارضين للمثلية الجنسية في الغرب الأوروبي والأميركي بالرغم من سن العديد من القوانين الداعمة لشرعية المثليين

في هذه البلاد، حيث يري أصحاب هذا الفكر أن الأمر يمثل خروجاً واضحاً عن الفطرة السليمة. وبالنسبة للمجتمعات صاحبة المرجعية الدينية والمجتمعات المعارضة للمثلية الجنسية بوجه عام، فمن الممكن أن نشهد حالة من عدم التعبير عن التوجهات المثلية وعدم السماح بذلك، حيث تنظر إلي الأمر علي أنه عمل مشين أو سلوك شاذ وتدرجه تحت بند الخطيئة. وقد يتطور هذا السلوك ليصل إلي حالة من الازدواجية، والتي تُعرف بالازدواجية الجنسية، حيث ينخرط الفرد في علاقات مختلفة مع الجنس المشابه له، والجنس المخالف عنه لُيعرف "بالبايسكشوال"، ومن الممكن أن نرصد الكثير من الحالات المعروفة بالازدواجية الجنسية مثل آمبر هيرد، وكريستن ستيوارت، وأنجلينا جولي. وبالنسبة للهوموفوبيا، فإنها تمثل حالة من المشاعر والأحاسيس السلبية المُوجهة تجاه المثليين وكل ما يتعلق بهم، وقد يمتد المصطلح ليشمل "البايسكشوال" و"الترانسجندر" أيضاً، ويمثل الأمر برمته خليطاً من الخوف والكره والازدراء والرغبة في التجنب. وقد تنظر المجتمعات صاحبة المرجعية الدينية إلي تدمير سدوم، وعمورة علي أنه إدانة صريحة للمثلية الجنسية، حيث تستند إلي النصوص الدينية المتعلقة بهذا الشأن، والتي تتحدث عن

القري التي خسفها الله لارتكاب أهلها للكثير من المفاسد وممارسة اللواط والانخراط في الممارسات الجنسية الغريبة بوجه عام. في النهاية، تختلف الأبحاث العلمية حول قضية المثلية الجنسية حتي يومنا هذا، وتختلف المجتمعات في نظرتها للمثليين بشكل واضح، لتتمثل في فريقين أحدهما مساند وداعم، والآخر معترض ومعارض، ويمثل الدين المرجعية الرئيسية المُعتمدة من قبل المجتمعات المعارضة بكل تأكيد.

الإثارة الجنسية وثقافة المجتمع

تتضمن الإثارة الجنسية تفاعلات فسيولوجية متعلقة بعملية التحفيز الجنسي، وتعتمد هذه التفاعلات علي طبيعة المحفز وأبعاده المختلفة المُصنفة كمصدر للإثارة وكمحرك لليبيدو. ومن الممكن أن نأخذ من انتصاب القضيب والبظر كمثال واضح للتعبير عن الاستجابة الفسيولوجية الفعالة للإثارة الجنسية الناجمة عن المثير أو مصدر الإثارة، لكن من الضروري أن ندرك حجم الاختلاف الواسع بين المجتمعات بشأن مصادر الإثارة الجنسية نفسها، فما يعتبره مجتمع ما كمصدر للإثارة الجنسية وكمنشط لليبيدو، قد يمثل النقيض في مجتمع آخر. وقد أوضح الصورة ضمن نطاق أضيق عبر التعرض لفكرة "المرأة الممتلئة والمرأة الرفيعة"، حيث تنظر بعض المجتمعات إلي الممتلئة علي أنها مصدر لجذب الانتباه بينما تنظر مجتمعات أخري إلي الرفيعة علي أنها الصورة الأفضل للتعبير عن المرأة المعيارية الجميلة، ومن الممكن أن نتطرق إلي نفس الفكرة عبر ربطها بالأزمنة المختلفة، ففي القديم، كانت الأولوية للمرأة الممتلئة، وفي عصرنا الحالي، تمثل المرأة الرفيعة الأولوية والأفضلية. وقد تمثل هذه البيئة من التصنيفات حالة من السطحية والتبجح وفقاً للكثير من المفكرين والباحثين، لكنها في نفس الوقت تمثل

الحقيقة المبنية علي الرصد والملاحظة بالنسبة لآخرين. ومن الممكن أن نتطرق لمثال آخر عبر التعرض لتأثير المواد الإباحية علي المجتمعات المختلفة، حيث أنه من الممكن لمجتمع ما أن يعتبر الإباحية والبورنوجرافيا كمصدر للإثارة الجنسية، وفي نفس الوقت قد يعتبرها مجتمع آخر أمراً مقززاً أو مثيراً للاشمئزاز. ومن الممكن أيضاً أن نطبق الأمر نفسه علي المستوي الفردي بدلاً من الاعتماد علي عملية التعميم، حيث قد يختلف أفراد المجتمع الواحد في منظوراتهم وتوجهاتهم الخاصة، فمن الممكن أن نشهد حالة من التفاوت بين الأفراد في العملية الخاصة بتحديد مصادر الإثارة والمقاييس الجمالية المتعلقة بها والأبعاد المتعددة المرتبطة بتأثيراتها. وتُطبق الاختلافات بين المجتمعات والثقافات علي كلا الجنسين من ذكور وإناث، حيث يختلف المنظور الخاص بالذكور تجاه الإناث، والمنظور الخاص بالإناث تجاه الذكور وفقاً للمجتمع نفسه، والأفكار الجديدة المسيطرة عليه، والفترة الزمنية التي يعيشونها.

-القسم الثاني

الغريزة الجنسية والموت (النظرة الفلسفية)

الجنس

إن الغريزة الجنسية لا تُرضي بالصورة التامة أبدا، ولا تُدرك أبعادها بشكل كامل، وهو ما يمثل الفخ الذي يقع فيه معظم البشر، حيث يعتقدون أن المبالغة في الممارسات الجنسية الشرعية أو غير الشرعية قد تجلب لهم المتعة الدائمة، لكنهم واهمون، فبالرغم من ضرورة الإرضاء وأهميته، إلا أن حالة التذبذب المصاحبة له وعملية السعي الدائم نحو بلوغه قد تفقدان الفرد راحة باله، وتدخلانه في حلقات مفرغة من الشهوانية والبحث عن الخلاص، بالرغم من الحقيقة المتمثلة في كون الجنس جزءا من منظومة الخلاص، وعنصرا من عناصر استجلاب أحوال الغيبوبة والتخدير، فلا يمثل الكل بل يشكل الجزء، وهو جزء ضروري يهدف إلي الانتعاش والتنشيط دون الانغماس أو الإدمان، حرصا علي بلوغ التوازن وإدراك الاستقرار الذهني، والنفسي، والروحاني، وهو ما تثبته التجربة البشرية المقترنة بالمنظومة الفكرية الحكيمة والعاقلة. قلل أفلاطون من شأن الجنس مؤكدا على ضرورة الارتقاء به، والوصول من خلاله إلى شيء أفضل وأرقي، ولم يتحدث عنه أرسطو كثيرا ونادرا ما ذكره، ونظر إليه أوجستين ضمن إطار متدن موضحا الخطورة النابعة من سيطرته علي البشر ومعبرا عن وهمية المتعة

المرتبطة به، والتي تحولهم إلي عبيد وضعفاء، ليؤكد على أهميته كوسيلة للتكاثر فقط. وقد وضعت الكثير من الديانات قيودا للتحكم بالغريزة الجنسية، وتنظيمها، وتوظيفها في الإطار المضبوط والمرتبط بالتكاثر والمتعة وتحمل مسئولية النسل الناجم عن ذلك. وبالرغم من ذلك، شهدت التجربة البشرية درجة غير عادية من العشوائية فيما يخص عملية التوظيف الجنسي، وهو ما يمكن أن نشهده في الكثير من المجتمعات دون تعميم. وقد تنوعت الآراء المعبرة عن أهمية الجنس، وظهرت الكثير من الأطروحات الفلسفية والنفسية المعبرة عنه والراصدة لأبعاده.

فخرج جان بول سارتر ليخبرنا بأن الشهوة الجنسية تقيد المرء وتفقده حريته، وضمن إطار مختلف، خرج فرويد ليحدثنا عن أهمية الجنس وحيويته وكونه الأساس والمحرك الرئيسي للبشر. ولا شك في الحقيقة المتمثلة في كون الجنس ضرورة من الضرورات اللازمة لاستمرارية الحياة، ولا يُدرك بالصورة الصحية والمفعمة بالروحانية إلا بالوصول إلى حالة من التوافق وبيئة من التصالح مع الذات والتآلف مع القيم المجتمعية المنظمة لعملية توظيفه. وإذا اعتمد المرء المذهب الهيدوني في تطبيقه، فحينها يجد نفسه منغمسا في بيئة مفعمة بالشهوانية المنهكة له على

المدي البعيد، ولا تشير كلماتي إلا سهولة إدراك الجانب العاطفي، ولا تتجاهل التعقيدات المرتبطة بالتوظيف الرومانتيكي، لكنها تعبر عن الفراغ والخواء الناجمين عن التوظيف الجنسي النقي دون مزج الجنس بالعاطفة، وربط ممارسته بأهداف أسمي وأرقي من مجرد الإمتاع والتخدير. وقد تتجه العقليات السوداوية إلى الممارسات الجنسية والنزوات الماجنة بشراهة كوسيلة لاستجلاب أحوال الغيبوبة والتخدير، وهو ما يرتبط بالبيئة الشاملة المتضمنة للجنس والخمور والمخدرات وغيرها من عناصر الهروب والتهدئة. وعندما نتأمل معا الليبيدو ونتمعن في أبعادها، نجد أنها ترتبط بنقاط ثلاث، أولها الجانب الفسيولوجي المتمثل في الهرمونات الجنسية والنواقل العصبية، وثانيها الجانب الاجتماعي المرتبط بالأسرة والعمل، وثالثها الجانب السيكولوجي المعتمد على حجم الضغوط النفسية وأبعاد الشخصية. وإذا أردنا أن نضع الرغبة الجنسية في إطار أضيق للتبسيط، فمن الممكن أن نترجمها إلى حالة من السعي الدؤوب نحو إدراك بيئة الاحتكاك الجسدي مع الجنس المقابل أو بلوغ منظومة الإمتاع المعتمدة على التلامس واللذة الناجمة عنه أو الوصول إلى حالة حسية مرتبطة بالمرء

نفسه، وغالبا ما تتجسد عبر العادة السرية، والهتاك، ومتابعة النشاط الجنسي للأفراد عبر الإطار الحياتي الواقعي أو السياق الافتراضي المقترن بالبورنوجرافيا، والأفلام الإيروتيكية. لا يمكننا أن ننظر إليها ضمن الإطار التجريدي المفتقر إلى المعني والأفكار؛ لأنها ترتبط في نفس الوقت بالاهتمامات الشخصية، والميول العاطفية، ولا تقتصر على عملية الإمتاع المادية الخالصة. ولا يمكننا أن ننظر إليها على أنها شهية جامدة ومجردة، حيث أنها ترتبط بالمشاعر وتعتمد على مشاركة الأفراد لبعضهم البعض وتحقيق التبادل بينهم، فعندما تمارس المراهقة الصغيرة العادة السرية، فإنها تفعل ذلك معتمدة على الخيالات أو مشاهدة البورنو على سبيل المثال، وفي كلتا الحالتين، نجدها في حالة من التفاعل مع أشخاص على المستوي الخيالي الذاتي أو الصعيد الافتراضي المرتبط بما تشاهده، وهو ما يتطلب الاختيارية والتركيز. وعندما تنخرط في ممارسة الجنس بصورة لاحقة، تمتزج بيئتها الجنسية بالمشاعر والعواطف، وإذا غابت عنها العاطفة، وجدت نفسها في بيئة خاوية وغير قادرة على تحويل خيالاتها السابقة إلى واقع ملموس. وكنتيجة لذلك، لا يمكننا أن ننظر إلى الرغبة الجنسية ضمن إطار جامد، حيث أن السلوك الجنسي مبني في أساسه على

الحيوية، والتفاعل، والمبادلة الإيجابية والفعالة. وبالرغم من ذلك، قد ينظر الكثير من الذكور إلى الإناث على أنهن أدوات إرضاء بحتة، وقد يعاملونهن ضمن الإطار التسليعي المعتمد على الاهتمام بهيئة الجسد، وحجم الثديين، وشكل الفخذين، وغيرها من الأمثلة التي تعبر عن بيئة الخواء العاطفي والتعامل مع المرأة على أنها ما يشبه الطعام والمأكل، وهو ما يؤدي بصورة مباشرة إلى السعي الذكوري نحو التعددية دون تعميم، وقد تساعد الأنثى في عملية التسليع من خلال التجاوب مع أفكار الذكر والإنصات لها، وهو ما نشهده في الكثير من المجتمعات. ومن الممكن أن نتأمل معا عملية التشاؤم الجنسي أو النظرة السوداوية للتوظيف الجنسي، وهي بيئة مرتبطة بمعاملة الجسدين الملتحمين ضمن الإطار الجامد والمفرغ من المعني، حيث ينظر أتباع هذا الفكر إلى الممارسة الجنسية على أنها عملية تكيف وإعداد تُمارس من قبل كل جسد بهدف إرضاء متع حسية خالية من المعني، وعديمة القيمة، وخاصة بالجسد الآخر. وهو ما يرتبط بالأفكار التي تنظر إلى الإطار الجنسي ضمن سياق مبني على منح الأولوية لعملية الإرضاء الجسدي، وتوفير الأدوات اللازمة لذلك، بينما تنظر المنظومة المتفائلة إلي الأمر برمته ضمن الإطار المبني على القيمة

والمعني، والمرتبط بعملية الارتقاء بالسلوك الجنسي والوصول به إلى درجة عالية من الارتباط الروحاني والثقة المتبادلة. تتقبل منظومة التفاؤل فكرة التركيز على الجسد لكنها في نفس الوقت لا تجد أنه عائق يحد من الوصول إلى التبادل العاطفي والروحاني والذهني بين الفردين المنخرطين في الممارسة الجنسية، وهو ما يتماشى مع الأغلبية ويتفق مع الفكر الجمعي في أغلب الأحيان. وإذا تأملنا السياق الجنسي بتعمق، لوجدنا أنفسنا أمام بيئة مبنية على عنصرين أساسيين، أحدهما يستمد كيانه من الطبيعة الفسيولوجية والبيئة الداخلية للكائن البشري، والآخر مبني على الرغبة النابعة من الشخص نفسه والهادفة نحو إدراك المتع الجنسية ومحاولة استجلاب بيئة التخدير كوسيلة للتقليل من وطأة الضغوطات الحياتية المتعددة. ومع درجات التعقيد المصاحبة لعملية تحقيق الذات والتوترات المرتبطة بالحراك البشري، قد يلجأ العقل البشري إلي المتع الحسية المباشرة ومن بينها الجنس بكل تأكيد. لا يعتمد النشاط الجنسي للإنسان على الانخراط المباشر لكنه يعمد إلى التدرج والتعرف، وهو ما يتمثل في عملية التمهيد السابقة للممارسات الجنسية وحالة التصاعد المصاحبة لها، حيث يبدأ المراهق بممارسة العادة السرية

وينتهي بالجماع الكامل، وهو ما يتحقق وفقا للكثير من العوامل المجتمعية والذاتية. وقد ننظر إلى السلوك الجنسي وعملية التطبيق الخاصة به ضمن مقياس مطاطي يختلف باختلاف البيئة والثقافة، وفي نفس الوقت من الممكن أن نجد حالة من عدم الالتزام بالقواعد المجتمعية والتعاليم الدينية في الكثير من الأحيان، وهو ما تثبته التجربة البشرية وترصده الملاحظة الدقيقة للنشاط الجنسي البشري. في الكثير من المجتمعات التي تحاول الالتزام بقواعد معينة أو أن تسير على نهج ديني محدد فيما يخص عملية التوظيف الجنسي، نجد الفتيات، على سبيل المثال، يعملن على المطالبة باحتياجاتهن الجنسية ضمن إطار مبني على التغليف والتنكير، فنجد الفتاة تتحدث عن الأسرة والزواج والأطفال، لكنها لا تتحدث عن الجنس بالشكل الصريح في أغلب الأحيان. ولا يمكنني أن أتجاهل الحقيقة المتمثلة في كون الجنس جزءا من منظومة الاحتياجات المختلفة للإنسان وأنه لا يمثلها جميعا، لكنني أتحدث عن مفهوم المطالبة، وحالة التعبير، وماهية الإفصاح عن الرغبة في إرضاء الجانب الجنسي عند الكائن البشري. وفي المجتمعات المتحررة، من الممكن أن تُعامل الفتاة كمريضة على المستوي النفسي إذا لم تمارس الجنس في سن معينة،

حيث ينخرط الذكور والإناث في الممارسات الجنسية في فترات مبكرة للغاية وتتوافر للجميع البيئة اللازمة لذلك. ولا تعني كلماتي، فيما يخص المجتمعات التي تحاول الالتزام، قدرتها على تحقيق الانضباط والنظام، بل من الممكن أن نشهد قدرا كبيرا من العشوائية فيما يخص عملية التطبيق والتوظيف، وقد نرصد الكثير من الحالات المعبرة عن رغباتها دون قيود، وهو ما تثبته النظرة الموضوعية للأمور. من الممكن للذكر أن يتحول كل شيء في نظره إلى بيئة من العبث، باستثناء الجنس، لنجده منخرطا في حالة من تقديس الغريزة الجنسية والعمل على توفير كل السبل الممكنة لإرضائها، وقد يتجاوز كافة المنظومات الأخلاقية حرصا على بلوغ مراده والوصول إلى هدفه، وقد نجد الكثير من المجتمعات المفتقرة إلى المنظومة الأخلاقية أو المتخلية عنها بعد تمرد، لتسمح لساكنيها بممارسة الجنس كما يحبون ودون أي قيود. فعندما نتأمل معا الإسكيمو، نجد أنفسنا بصدد التعامل مع مجتمع مفتقر إلى الغيرة الجنسية بشكل واضح، حيث يمارس سكانه عادة إعارة زوجاتهم للضيوف، ويتبادلون الزوجات فيما بينهم، ويمارسون في الشتاء الكثير من الألعاب ذات الطابع الجنسي الواضح والصريح. وقد نجد الكثير من القبائل

منخرطة في الممارسات الجنسية بلا هوادة، وربما تمارس الجنس العشوائي في الظلام دون رقابة أو نظام. وفي المجتمع الأوروبي، من الممكن أن نرصد عددا من حالات الكاندويلزم، وقد تُمارس بصور غريبة وضمن سياقات مختلفة، وهو ما يشير بصورة مباشرة إلى إمكانية غياب الغيرة الجنسية عند الكائن البشري. ومن المعروف أن غياب الغيرة الجنسية في مجتمع ما يساعد بصورة واضحة في تأصيل حالة العشوائية الجنسية والسماح لها بالتشعب والانتشار. ولا تشير العشوائية إلى الانخراط في الممارسات الجنسية دون تمييز لكنها تعبر عن حالة من لفظ القواعد، والبحث عن التحرر، وممارسة الخيانة الزوجية والزنا. لم تصل الكثير من المجتمعات المتحررة في عصرنا الحالي إلى هذه الدرجة من التحرر بسهولة، لكنها تخلصت من الدين والقواعد المجتمعية ضمن إطار مبني على التمرد والتبجح، وقد عملت على التقليل من شأن القواعد الدينية وانخرطت في صراع شرس مع الكيانات الدينية المختلفة. وقد خرج أحد القساوسة الأمريكيين واصفا المجتمع الأمريكي بالمجتمع الفاسق، ومنددا بالحالة التي وصل إليها الشباب من سعي نحو الفسوق، وبحث عن المتعة دون رغبة في تحمل المسئوليات وتكوين عائلات جديرات

بالاحترام. وفي نفس الوقت، لا يمكننا أن نخضع المجتمع الأمريكي بأكمله إلى هذا الوصف والتصنيف، لأننا علي علم باختلاف درجات التحرر وتنوع القوانين وتباين حجم الالتزام بين الولايات المختلفة. وفي أوروبا، من الممكن أن نجد اختلافا واضحا بين المجتمعات، فنجد المجتمعات الغربية أكثر تحررا من الشرقية، وقد يُعامل المجتمع الفرنسي ضمن الإطار المتحرر بصورة مباشرة. ومن الممكن أن نرصد الكثير من الأمور الهزلية المرتبطة بالممارسات الجنسية في المجتمع الفرنسي بصورة خاصة، فنجد المرأة مهتمة بالرجل الذي يحقق لها أعلي درجات النشوة الجنسية دون الاهتمام بمستواه الاجتماعي وحجم التوافق الفكري بينهما، ولا يمكننا أن نعمم هذه الظاهرة لكن من السهل أن نرصدها بصورة متكررة، وقد عبرت الدراما الفرنسية الاجتماعية عن هذه الحالة في أكثر من مرة ضمن إطار هزلي ساخر. تري بعض الأبحاث أن رجل الكهف كان ينخرط في الممارسات الجنسية دون تمييز، وأن هذا الكائن البدائي لم يهتم بتكوين علاقات عاطفية مع الجنس المقابل، لكنه سعي نحو الإرضاء الجنسي ضمن إطار مجرد من العاطفة والمعني، وهو ما يمثل السياق الحيواني المباشر للممارسات الجنسية. تعرضت حالة التحرر

الجنسي التي وصلت إليها الكثير من المجتمعات في عصرنا الحالي إلى بيئة تدريجية واضحة، وقد بدأت هذه البيئة بالعشوائية الجنسية المبنية على الانخراط في الممارسة خفية ضمن إطار مبني على التمرد وانتهت ببيئة التحرر المعلن والقادر على لفظ كل القواعد والتخلص منها، وهو ما نشهده في زمننا الراهن بصورة واضحة، وقد تتعرض الكثير من المجتمعات التي تحاول الالتزام قدر المستطاع إلى هذه الحالة في القريب العاجل، حيث تتحول العشوائية الخفية مع الوقت إلى تحرر معلن، وهو ما تثبته التجربة البشرية بوضوح. وإذا كان غياب الغيرة الجنسية عاملا من عوامل العشوائية، فمن الممكن أيضا أن نضيف إليه عاملا آخر، وهو الملل والرغبة في ولوج حياة الآخرين. فمن الممكن أن نجد رجلا متزوجا وسعيدا مع زوجته وأولاده، لكن في الوقت نفسه تلاعبه الكثير من الأفكار الخاصة بالبحث عن امرأة أخري وقضاء بعض الوقت معها. ولا يمكنني أن أتجاهل الدافع الجنسي القادر على إقحام هذه الأفكار في عقل الشخص موضع الحديث، لكن العامل الجنسي يمثل البداية والنقطة الأولية قبل أن يتطور السياق الكلي لهذه الحالة ويمر بالمحادثات المتبادلة بين الطرفين وولوج كل منهما لحياة الآخر. وتتحقق

عملية الجذب الجنسي عند البشر اعتمادا على البصر، وهو ما يختلف عن الحيوانات بصورة واضحة، حيث تمثل حاسة الشم في معظم الحيوانات العامل الأكثر أهمية في الجذب الجنسي، فتجذب الأنثى الذكر عبر الرائحة الناجمة عن إفرازات غددها الموجودة عند الفرج على سبيل المثال، ويحتوي جسد الأنثى من البشر علي غدد مشابهة لكنها تعمل على تسهيل عملية الممارسة الجنسية فقط. لكننا لا نعيش في عالم الحيوان، وبالرغم من حقيقة انجذاب الكائنات البشرية لبعضها البعض اعتمادا على النظرات ونبرات الصوت، ورغم تجاهلها للقيود المجتمعية في الكثير من الأوقات، إلا إنها قادرة على كبح جماح أنفسها إذا سعت بإرادة وتصميم نحو ذلك، حرصا على تجنب المشاكل الناجمة عن الخيانة الزوجية على سبيل المثال، وبخاصة في المجتمعات المحافظة. وبالرغم من ذلك، قد يعاني بعض البشر من فرط الرغبة الجنسية، مما يدخلهم في حلقات مفرغة من الممارسات الجنسية غير المحدودة. وتُثار الكثير من النظريات حول ماهية هذه الحالة، وتُطرح العديد من الأطروحات حول كيفية التعامل معها، وفي نفس الوقت تؤكد الأبحاث العلمية على أنها حالة مرضية رئيسية، وقد تُعامل كعرض جانبي لمرض رئيسي ضمن

إطار مختلف. وإذا تأملنا سلوكيات النيمفومانياك أو الساتيرومانياك بتعمق، لوجدنا أنفسنا أمام حالة من التداخل بين العديد من العوامل القادرة على خلق هذه البيئة المُفعمة بالشهوانية، وتمثل الوساوس القهرية مصدرا رئيسيا لها. لكننا هنا أمام إشكالية تتمثل في حقيقة العادة السرية التي يمارسها الكثير من المراهقين والمراهقات، وماهية هذه الممارسة، وحجم التأثير المتعلق بها. في الحقيقة، لا تعتمد الأبحاث على التعميم فيما يخص العادة السرية لكنها تركز على الحالات المرتبطة بالإدمان، والإلزام، والخروج عن المعيار الطبيعي للممارسة، وهو ما تصنفه تحت بند فرط الرغبة الجنسية، وتدرجه ضمن أبعاده. وربما تعود حالات الهايبرسكشواليتي إلى تغيرات فسيولوجية، وقد تصاحب الديمينشيا، ومن الممكن لها أن تنجم عن العديد من العوامل البيولوجية. يري البعض أنها ترتبط بعدم قدرة الفرد على إدراك الوسطية، وغياب الوعي اللازم لذلك، وقد تتصل هذه البيئة بالعديد من حالات البارافيليا، ومن الممكن أن تُدرك مع اضطراب الشخصية الحدي أيضا. وبعيدا عن فكرة التعامل معها كمرض أو عرض، فهي تمثل ببساطة الرغبة العارمة تجاه الممارسة الجنسية والحاجة الملحة نحو إرضاء الغريزة الجنسية وبلوغ

الأورجازم بصورة متكررة، وهو ما تثبته الملاحظة الأولية والسريعة للأمر برمته. في كتابه "الجنس والشباب الذكي"، يري كولن ولسون أن الرغبة الجنسية هي أحد أكثر الحوافز أهمية في التجارب التي يخوضها الإنسان، خاصة الرجل. لكنه في نفس الوقت يري أن الفعل الجنسي نفسه مخيب للآمال، وإذا استطعنا تفسير ذلك، فحينها نكون قد وضعنا أيدينا علي مفتاح أسرار الوجود الإنساني نفسه وليس سر الجنس وحده. من الممكن أن نرصد الكثير من التناقضات فيما يخص النشاط الجنسي، ومن المتاح أن نترجم العلاقة بين الذكر والأنثى إلى بيئة من الرغبة في امتلاك الجسد والتعلق الشخصي المتبادل، وإذا تأملنا حال الكثير من الذكور، لوجدنا أنفسنا أمام رغبة عارمة تجاه امتلاك الجسد الأنثوي أكثر من أي شيء آخر، وهو ما تبرهنه التجربة البشرية التي تظهر الذكور في حالة من السعي الدائم نحو التعددية، ورغم كلماتي السابقة، لا يمكنني أن أعمد إلى التعميم أو الشمول. وإذا تحدثنا عن الجنس بصورة موضوعية، فمن الأفضل أن نؤكد على أهميته وحيويته، لكن من غير المنطقي أن نربطه بالحياة البشرية بأكملها، ومن غير المعقول أن نتحدث عنه بهوس دائم مثلما يفعل الكثير من الغربيين. وربما يمثل العنصر المادي

الجسدي الدافع الأول للكثير من الزيجات خاصة عند الذكور، ليجدوا بعدها أنفسهم في بيئة طبيعية وضرورية، لكنها ليست بالصورة المضاهية لخيالاتهم السابقة. ومن الممكن أن تتحقق الكثير من الزيجات ضمن إطار جسدي محض دون وجود فعلي لعواطف متبادلة بين الطرفين، وعندما تنزوي حالة الهوس المتعلقة بالرغبات الجسدية، تظهر المسئوليات على السطح، وتنكشف ماهية الزواج المبني على تحمل المسئولية، وتحقيق الاستقرار. ولهذا من الضروري ألا تقوم هذه المنظومة على الدافع الجنسي وحده، ومن المهم أن تُبني معتمدة على التبادل الفكري والعاطفي والوجداني والرغبة في تكوين أسرة وتوفير احتياجاتها. إن الرغبة الجنسية النقية مدمرة لصاحبها بصورة يصعب وصفها أو التحدث عنها، وإذا تأملنا الكثير من الروايات والأفلام المعبرة عن الهوس الجنسي أو الاهتمام بالجنس فوق كل شيء، لوجدنا أنفسنا أمام بيئة صريحة من الخراب النفسي والدمار. ولا يمكنني أن أتجاهل الحقيقة المتمثلة في ترويج العالم الذي نعيشه للممارسات الجنسية الخالصة والمجوفة، ولا يسعني سوي أن أؤكد على حيوية البيئة المازجة بين الجنس والعاطفة، وهشاشة البيئة المرتبطة بالجنس وحده، فلا يتمثل

الأمن الوجداني والاستقرار النفسي سوي في منظومة قادرة علي دمج الجوانب المختلفة للفكرة دون لفظ بعضها والاهتمام بالبعض الآخر. ولا يمكن مسايرة منظومة الزواج سوي بالاعتماد على عملية الدمج، وقد يمثل التوافق الفكري والتبادل العاطفي الملطف المباشر للمناوشات والنزاعات المنبثقة من بين أحضان الاحتكاك بين الزوجين على طول الطريق. إن حالة التعرض الدائم التي تشمل الزوجين تمثل أمرا محببا في البداية، ومع مرور الوقت وانتهاء الموضوعات التقليدية والسلمية والتي تُبني عليها أحاديثهما، تخرج إلى الكادر العام العديد من الكلمات غير اللائقة، والتي لا يمكن التغافل عنها سوي بالاعتماد المباشر على وجود بيئة مسبقة من التبادل العاطفي، والرغبة في التحمل والمتابعة، وهو ما تثبته الكثير من الزيجات حول العالم. وتقل الكفاءة الجسدية والجنسية للزوجين مع مرور الوقت، وإذا لم يتكيف كل منهما مع هذه الحالة، خاصة الذكور، نجد أنفسنا أمام بيئة من الخيانة الزوجية أو الزنا. تظهر الكثير من الحالات الساعية نحو الزواج المعتمد على الدافع الجنسي الخالص دون الاهتمام بالجانب العاطفي والتبادل الفكري في الكثير من المجتمعات المحافظة، وتشمل الأفراد الملتزمين بالقواعد النابعة من

الدين والعادات والتقاليد، دون تعميم. وتمثل المنظومة الدينية والأخلاقية التي تضعها المجتمعات المحافظة البيئة الأفضل للعلاقة بين الذكر والأنثى، لكن من الضروري لهذه البيئة أن تقوم على السعي نحو بلوغ الأمن العاطفي والتبادل الفكري والتوافق الروحاني، وهو ما يدعو إليه الدين بصورة مباشرة، ورغم ذلك، من الممكن أن نجد -الكثير من الأشخاص المفتقرين إلى الحكمة والوعي المعرفي- منخرطين في بيئة من السعي نحو الزواج بهدف الجنس وحده، وهو ما يمثل النظرة الضيقة إلى الأمور. ومن الممكن لأفراد من الذكور من أبناء هذه المجتمعات، وذوي نزوات جنسية سابقة أن يسعوا نحو الزواج بهدف جنسي خالص، وفي هذه الحالة تقوم منظوماتهم الفكرية على السعي نحو امتلاك جسد الفتاة الراغبة في الزواج على وجه الخصوص، رغم ممارستهم الجنس سابقا ضمن إطار غير شرعي. وهو ما يؤكد فكر الذكور المبني على معاملة المرأة ضمن إطار يشبه معاملتهم للطعام، حيث يعتقدون أنه من الضروري أن يمارسوا فكرة التنوع مع النساء بصورة مشابهة لتناولهم الكثير من أنواع الطعام، وهو ما يمثل أمرا صعبا على المستوي التطبيقي، وإذا تحقق، لا يمكن ممارسته بصورة مستمرة أو واقعية أو شاملة. وفي

نفس الوقت، لا يمكنني أن أخضع كل الذكور إلى هذه الحالة الوصفية، ومن المنطقي أن أربطها بالكثير منهم دون تعميم. إن -السعي نحو تكوين علاقات بين الأطراف المختلفة بهدف امتلاك الجسد أو إرضاء شهوات عابرة- يمثل أمرا عبثيا وهزليا، ومن المؤكد أن الكثير من حالات الطلاق تعزي بصورة مباشرة إلى قيام منظومة الزواج على الرغبة الجسدية المحضة أو السعي نحو إرضاء شهوات عارمة يصعب التعامل معها بصورة منطقية ولائقة. إن الجنس المفرط طريق سهل لدعم الروح المعنوية لفترة قصيرة من الوقت، وقد يمثل الملجأ المباشر للكثيرين ممن فشلوا في حيواتهم العملية، وكان ينقصهم احترام الذات. لم تكن لديهم القوة اللازمة لتحقيق ذواتهم، والوصول إلى شيء جدير بالتبجيل والاحترام، ولهذا اتجهوا إلى الممارسات الجنسية الزائدة عن اللزوم بهدف بلوغ أي درجة ممكنة من الإرضاء، والحصول على بعض شطحات الدوبامين. ولهذا من الضروري أن ندرك أهمية الممارسات الجنسية المعتدلة دون إفراط، حرصا على بلوغ الهدف الفعلي للعملية نفسها، وتجنبا للكثير من التبعات المؤذية، والتي ترتبط بالمبالغة والإفراط. وتُعد عملية خلط الجنس بالعاطفة أمرا ضروريا لا غني عنه، ولا يمكن أن

يعيش عاقل بدونه، وإذا أردنا أن ننخرط في حالة جنسية خالصة، فحينها نكون قد أقحمنا أنفسنا في بيئة منهكة للنفس والروح، لأننا بهذه الهيئة نكون قد كتبنا على أنفسنا الحراك المُفرغ من العاطفة، رغم إدراكنا الفعلي لأهمية العواطف البشرية، وحقيقة الحراك الإنساني المبني علي العواطف المتبادلة، وهو ما يجعل من الوجود البشري وجودا عاطفيا وتجربة وجدانية أصيلة، وربما تتمثل أكبر مخاوف المرء في فقدانه لشخص عزيز بالنسبة إليه أو فرد قريب منه، وهو ما يمثل بصورة مباشرة الارتباط العاطفي والإنساني. ولهذا من المهم للمرء أن يضع شريكه الحياتي ضمن الإطار العاطفي قبل أن ينخرط معه في ممارسة الجنس، ومن الضروري أن يبني البيئة اللازمة لذلك، والتي تقوم في أساسها على المزج والجمع لا العزل والفصل. وإذا نظرنا إلى الغريزة الجنسية ضمن الإطار العميق، لوجدنا أنها ترقد في دواخل البشر بصورة متأصلة وعميقة، بينما تمثل العواطف المحرك والمولد. وقد تتجلي بيئة التوظيف النقي للغريزة في الكثير من الحالات، حيث يخبرنا المخرج لويس بونويل في مذكراته أنه لم يكن محبذا لفكرة استغلال الفتيات الصغيرات اللاتي يمثلن في أفلامه، لكنه في نفس الوقت يؤكد على استغلال الكثير من أصدقائه المخرجين

للمبتدئات منهن، وكأن الصفقة تقوم ببساطة على فكرة "الجسد مقابل الدور"، وللأسف خضعت الكثيرات منهن لهذه المطالب سعيا وراء الشهرة والمال، ولا يمكننا أن نعمد إلى التعميم بكل تأكيد. وفي روايات جيمس بوند، نجد أنفسنا أمام حالة هزلية واضحة، حيث تتمثل المكافأة بعد كل مرة يقضي فيها بوند على أحد الأشرار في فتيات بملابس داخلية أو سيدات شهوانيات. وفي الفيلم القصير "ميا"، نجد أنفسنا أمام بيئة مكونة من دقائق معدودة ومتضمنة لتفاعل مباشر بين شاب وفتاة، وتعتمد الفكرة على توثيق الذكريات الجنسية للفتاة، والتي تتضمن قدرا كبيرا من الممارسات المنحرفة بصورة واضحة. وفي نفس الوقت، يلعب مخرج العمل دور الشاب الذي يجبرها على الخضوع التام لممارساته الجنسية الغريبة والعجيبة. وفي هذه الحالة، نجد أنفسنا أمام بيئة إخراجية مبنية على الاستغلال والتحكم الجنسي بصورة مباشرة، ولا يمكنني أن أنكر الحقيقة المتمثلة في وجود بعض اللمسات الفنية البسيطة، لكنها غير كافية لتبرير سياق العمل، وطبيعته الشهوانية المتأصلة. ولهذا من الممكن للذكر أن يعبر عن غريزته ضمن إطار واسع، إذا سمحت له البيئة بذلك وتوفرت الأدوات اللازمة لممارسة توسعاته الجنسية الغريبة، وهو ما يثير

حفيظة الكثير من النسويات. وربما يمثل الفعل الجنسي نفسه حالة من السيادة الذكورية الواضحة، حيث تمثل الطبيعة الجسدية للسلوك الجنسي بيئة جلية من هيمنة الذكر وسيطرته على الأنثى، وهو ما يتمثل في الممارسة المرتبطة بولوج القضيب. ولهذا يرتبط النشاط الذكوري بالجانب السادي في أغلب الأحوال حينما يقترن بالخروج عن المألوف، بينما يرتبط النشاط الأنثوي بالجانب المازوخي حينما ينخرط في الممارسات المنحرفة أو البعيدة عن الإطار التقليدي. ورغم كل هذا، لا يمكننا أن ننكر الحقيقة المتمثلة في أن خلقة الذكر تمنحه بعض المزايا فوق الأنثى، وخلقتها تمنحها بعض المزايا فوق الذكر، ولا شك في أن سيمون دي بوفوار قد ألفت كتابها "الجنس الآخر" حرصا على إزالة التهميش المتعلق بالمرأة في الكثير من المجالات والنشاطات الحياتية، ولم تفعل ذلك من أجل قضايا جنسية خالصة. وإذا نظرنا إلى التعددية التي يسعي نحوها الكثير من الذكور ضمن إطار عميق، لوجدنا أنفسنا أمام حالة من البحث عن الملاذ الذي لا يُدرك أبدا ونقطة الاستقرار التي يصعب بلوغها أو الوصول إليها. وقد تساعدهم البنية الجسدية، والطبيعة الذكورية المرتبطة بالعدد اللانهائي للحيوانات المنوية، والمساحة الواسعة

التي تمنحهم المجتمعات إياها في الحصول على مرادهم، وهو ما يمثل أمرا لا يُحتمل بالنسبة للأنثى التي تحاول في أغلب الأحيان أن تستقر نفسيا وعاطفيا مع رجل واحد في النهاية. إن المفهوم الجنسي في حد ذاته مفعم بالتناقضات والإرباكات، ولا يمكننا أن نجد حلا واضحا لمفارقاته السائدة، وإذا تعمقنا في محاولة فهم تشعباته وامتداداته، لوجدنا أنفسنا أمام بيئة عميقة من العشوائية والاضطراب، وقد تمثل البيئة العاطفية حالة مشابهة ضمن إطار عميق وراسخ. وكثيرا ما أذكر الفيلم السينمائي "جميلة النهار" كمثال واضح للتعبير عن غموض البيئة الجنسية، وعدم قدرة المرء على بلوغ جوانبها بالشكل الكامل واللائق، حيث تمثل البداية تعبيرا صريحا عن الاضطراب المصاحب للشخصية الرئيسية بالعمل حينما يجبرها عقلها على زيارة أحد المواخير والعمل به. فما الذي يدفعها إلى فعل ذلك؟ ولماذا يشمل الفتور تفاعلاتها مع زوجها؟ وما هي غايتها من كل ذلك؟ وما هو سر خيالاتها المازوخية المتكررة؟ وهل تحب الخيال الجنسي أكثر من الفعل نفسه؟ وغيرها من الأسئلة التي تلاعب عقل المشاهد، وتقحمه في بيئة مباشرة من التساؤل حول ماهية النشاط الجنسي وطبيعة العناصر المحركة له، وهو ما يدفع

المرء في النهاية تجاه وصف النشاط الجنسي بالعشوائي، كنتيجة مباشرة لغياب القدرة اللازمة لفهمه وإدراك غايته التي تتعدي مجرد الإنجاب والاستمتاع. إن الدافع الجنسي نفسه ليس بمجرد غريزة لحفظ النوع، لكنه أكبر من ذلك، حيث يريد الإنسان شيئا يعجز عن فهمه أو إدراك أبعاده. إنه يريد أن يصل إلى هدف محاط بالضباب، ويرغب في بلوغ منطقة لا يعرف عنها شيئا بأي شكل من الأشكال. وفي نفس الوقت، قد يمثل النشاط الجنسي تعبيرا مباشرا عن مدي التربية التي يحصل عليها الفرد أو مقدار الحكمة التي ينعم بها، حيث تري الكثير من المجتمعات أن الحكمة الفردية تتجلي من خلال قدرة المرء على إرضاء رغباته وغرائزه ضمن إطار وسطي وشرعي، وفي نفس الوقت تري مجتمعات أخري أنه لا بأس بالتحرر الجنسي دون المبالغة أو الإفراط، وقد تدعو بعض المجتمعات إلى الرهبنة أو العزوف عن الممارسة الجنسية، وهو ما يمثل أمرا صعبا بكل تأكيد، وغالبا ما يعجز المرء عن تحقيقه. وسواء أرضي المرء غريزته ضمن إطار وسطي أو بإفراط، تبقي الغريزة الجنسية موضعا للتساؤل وبيئة يصعب بلوغها بالشكل الكامل. إن النشاط الجنسي مبني على الأهواء والأمزجة في الكثير من الأوقات، وهو ما يخلق

بدوره العديد من التبعات الضارة أو العواقب غير المتوقعة بصورة متأخرة. وربما يدفع الملل المرء تجاه المبالغة في الممارسات الجنسية، ومن الممكن لفراغ قاتل أن يأخذه إلى بيئة مبنية بصورة مباشرة على استجلاب أحوال الغيبوبة والتخدير، وقد يمثل الجنس عنصرا رئيسيا من العناصر المكونة لها. إن الخيال الجنسي محرك للبشر بصورة لا تُوصف، وقد ألف الكثير من الكتاب روايات وكتبا عبرت عن خيالات جنسية جامحة دون محاولتهم تحويلها إلى واقع أو سعيهم نحو خوضها ضمن الإطار الحياتي والواقعي. ورغم ذلك، من الممكن أن نرصد عددا من الكتاب أو المؤلفين الذين ارتبطت الكثير من كتاباتهم بواقعهم ونزواتهم الماجنة، وربما يمثل ماركيز دي ساد أشهرهم، وأكثرهم جموحا. جمعت رواياته بين الفلسفة والسادية والتحرر الجنسي والتخيلات الجنسية الماجنة والمفعمة بالغرابة والمثيرة للاستهجان، وقد احُتجز في عدة سجون في فترات متقطعة من حياته من بينها عشر سنوات في الباستيل، وتم احتجازه في مصح للأمراض العقلية لفترة مطولة من الزمان. واُشتق مصطلح السادية من اسمه ليصبح مرادفا للعنف والألم والدموية والانحراف. إن الفراغ والملل والقوة عناصر مباشرة لتشكيل البيئة التي

شملت حياته، ومصدر رئيسي لأفكاره المنحرفة والمتحررة والتي شكلت معظم كتاباته. وبالرغم من اشتهاره بالكثير من الفضائح والأفعال الماجنة واستئجاره للعاهرات واتهامه بالكفر والزندقة وممارسة الجنس الجماعي واستغلاله الجنسي والجسدي للشابات اليافعات، إلا أنه أكد باستمرار على عدم فعله لكل ما تخيل، وعدم رغبته في تحويل كل خيالاته إلى واقع، وقد توفي في النهاية بالسيلان. إن الحراك الجنسي المفعم بالمبالغة مصدر رئيسي للقلق والاضطراب، والحل الأمثل يكمن في الوسطية والاعتدال، حرصا على إرضاء الغريزة بالصورة المناسبة واللائقة، وهو ما يخالف النهج الذي اتبعه دي ساد بكل تأكيد. وإذا تأملنا معا مفهوم الخيال الجنسي ضمن إطار متعمق، لوجدنا أنفسنا أمام بيئة محببة بالنسبة إلى الإناث والذكور على وجه الخصوص، وقد تتجلي هذه البيئة عبر التفاعل مع الفوياريزم، ومن الممكن للكثير من العناصر الأخرى أن تتشكل تحت مظلة هذه المنظومة ضمن سياقات عديدة وغريبة. وتتماشي بيئة الخيال الجنسي مع الإيروتيكا، والتي تمثل الجانب الجمالي للغريزة الجنسية والمشاعر المرتبطة بترقب الانخراط في ممارسة النشاط الجنسي، وتعبر بصورة عامة عن الأحاسيس الجنسية التي تسيطر على الذكر

والأنثى ضمن إطار مبني على الترقب واللهفة. ولا تعبر كلماتي عن تحرك البشر ضمن سياق جنسي دائم، ولا تشير إلى إلحاق الخيال الجنسي بالنشاط البشري في كل الأوقات، وإلا حينها نكون على وشك وصف حالة من السعار الجنسي أو الهوس المرضي. يتفوق الإنسان على باقي الكائنات من خلال العاطفة والعلاقات الطويلة المبنية على التبادل العاطفي والتعبير الكلامي والتواصل الحسي، وربما نجد شيئا من هذا القبيل في الحيوانات لكن بدرجة بسيطة للغاية وفقا لبعض الدراسات الحديثة. وتعمل العاطفة ضمن الإطار التدريجي المؤدي إلى الممارسة الجنسية، كما تصبو إلى تكوين بيئة من الحب والرعاية المتبادلين بين الشريكين بشكل دائم ومستمر، حيث توفر للنشاط الجنسي بيئة أكثر أمانا واستقرارا على المدي البعيد، كما تعمل على تفعيل البيئة الطبيعية المناسبة للتكاثر والإنجاب للراغبين في ذلك. ورجوعا إلى حالة النشاط الجنسي المرتفع عند الذكور، فإنه أمر يثير حفيظة الكثير من النسويات، ومأزق كبير بالنسبة إلى العديد من المتزوجات، وكثيرا ما تراودني إحدى الجمل الفيمينستية الرنانة، والتي تقول: "هناك طريقة واحدة للتعامل مع الرجال، وهي أن نعاملهم كما لوكنا غير مهتمات بأمورهم. فهم

يريدون شيئا واحدا ويثيرون الضجة حوله بصورة غير مفهومة، وكلما جعلناهم يتوسلون أكثر، ازداد مدي سعادتهم". إن هذه الجملة تشير بصورة مباشرة إلى حالة الاستهجان التي تشعر بها المرأة حيال سلوكيات الذكر، وبيئة التعجب والفضول المهيمنة عليها فيما يخص التصرفات الذكورية بوجه عام، ولا يمكننا أن ننظر إلى الأمر ضمن إطار مبني على الشمول والتعميم بكل تأكيد. ولا يمكننا أن نتجاهل الحقيقة المتمثلة في ارتفاع النشاط الجنسي عند الإناث بصورة قريبة من الذكور، لكن طبيعتهن الجسدية والبنية الثقافية للكثير من المجتمعات لا تسمحان لهن بالحرية الكاملة. وربما عُرف عن ماركيز دي ساد انخراطه في الكثير من الممارسات الجنسية لكنها كانت في الأغلب مع العاهرات وبائعات الهوى، ولم تقدم زوجته على مضاهاة نشاطه الجنسي الغريب أو الانخراط في بيئة جنسية مشابهة، وهو الحال مع الكثير من الفاحشين الذين رصدهم التاريخ البشري. وقد وضح ألفريد كينسي في واحد من استطلاعاته أن نصف الرجال الأمريكيين المتزوجين قد سعوا نحو ممارسة الجنس خارج منظومة الزواج في فترات عدة من حيواتهم في مقابل عشر النساء الأمريكيات المتزوجات، وهي إحصائية راصدة لهذا

الشأن بالفترة المتعلقة بأواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وتعبر بصورة واضحة عن تفوق الذكور على الإناث بفارق شاسع فيما يخص العبث واللهو الجنسيين. ولا يشير اللهو الجنسي إلى الجماع الكامل بصورة دائمة، لكن من الممكن أن يأخذ أشكالا أخري كالتقبيل أو الملامسات أو الجنس الشرجي المضر أو الاحتكاك الكامل دون ولوج مهبلي، وهو ما يتماشى مع الطريقة المناسبة للمنخرطين في الممارسات الجنسية، ويتكيف مع البيئة المحيطة بهم. إن عملية التوظيف الجنسي مرهونة بالكثير من الأبعاد والظروف، ومحاولة التخلص من هذه الشروط وتفكيك عوامل الرهن بمثابة الانحراف والتمرد وفقا للكثير من المجتمعات والمنظومات، وهو ما تثبته التجربة البشرية بصورة واضحة، ورغم ذلك من الممكن أن نشهد مطاطية كبيرة في هذا الشأن، وحالة غير مسبوقة من التنوع والاختلاف. إن الجنس رغبة جامحة لا يمكن فهمها، تبدأ بالسعي الدؤوب والذي يستهلك الوقت والجهد وتنتهي فيما يشبه الاستيقاظ من الحلم، وحينما تسيطر على المرء تحيل كل شيء آخر إلى عبث وتقحمه في بيئة من المخاطرة والجموح، وربما تمثل مأزقا كبيرا لأبناء المجتمعات المبنية على الدين أو المنادية بضرورة انتهاج

البيئة الروحانية والعزوف عن الشهوات أو التقليل منها، وهو ما يتطلب الحكمة والقوة والإخلاص في هذه الحالة بكل تأكيد، حرصا علي عدم الاصطدام بالمنظومة الأخلاقية والدينية، ورغم ذلك وكما قلت مسبقا، يقود الجنس الكثيرين ويسيطر عليهم وقد لا يعبئون بأي شيء آخر من أجله. في إحدى كتاباته، يري كولن ولسون أن التعامل مع الجنس يحتاج إلى الذكاء والعقل والحكمة، لأن ممارسته دون إدراك ووعي تُعد تدميرا للذات وغيابا للقدرة على إدراك الفرق بين الجيد والرديء، كما يري أن الفعل الجنسي نفسه سهل ورتيب لكنه ضروري وهام، ولا يجب التعامل معه بتهور لأنه يحتاج إلى الإدراك والتعرف والتكيف، ورغم بساطته من الممكن أن نجد حالة مستمرة من الترويج الصريح له ولكل ما يخصه عبر الوسائط المختلفة. إن الفعل الجنسي نفسه ليس بالخيالات التي تخلقها الميديا، ولا يمت إلى الإيحاءات التي يتجاوب معها العقل البشري بصلة، لكنه مبني على التوظيف الفعلي والمباشر، وعندما ينخرط الفرد في ممارسة الجنس، يتوقف العقل عن استدعاء الخيالات الجنسية، ويندمج مع حالة التبادل الحسي المنخرط فيها بصورة أحادية بحتة، لأنه غير قادر علي التجاوب مع البيئتين في نفس الوقت. إن ما يختلف حقا بين البشر فيما

يخص التوظيف الجنسي يكمن فيما يسبق الممارسة الجنسية من حيث حجم الخيال الجنسي وعناصر الإيروتيكا المستخدمة وأناقة البيئة المحيطة، وفي نفس الوقت يتجلى عبر الممارسة الجنسية نفسها من خلال درجة الكفاءة الجنسية، وهو ما يرتبط بصورة مباشرة بالعمر ونوعية الطعام وممارسة الرياضة وغيرها من العوامل. لكن العملية نفسها واحدة رغم اختلاف مفرداتها وتنوع القدرات المنخرطة في ممارستها، وبالرغم من أهميتها وحيويتها والهوس المحيط بها، إلا أنها مع الوقت تصبح أمرا روتينيا، وتتحول إلى ما يشبه المأكل والمخرج.

الموت

يتمثل الموت في خروج الروح من الجسد والانتقال إلى العالم الآخر، ومن الصعب تحديد ماهية الروح، لأنها سر من أسرار الإله وحده، ولا يُسمح لأحد بالتعرف عليها أو إدراكها بأي شكل من الأشكال. إن أفعي الموت ترقد للبشر، وتلاعبهم عن بعد، وتفاجئهم في نهاية المطاف، ولا يمكن تجنبها أو الفرار منها، لأنها ماهرة في اصطياد فرائسها والإحاطة بها. وإذا نظرنا إلى الأمر برؤية واقعية وموضوعية، لوجدنا أنفسنا أمام بيئة من توقف الوظائف الحيوية للكائن البشري، وفصله عن البيئة التي شملته منذ بداية نشاطه المتمثلة في ولادته، وحالة من الانقطاع التام عن التفاعل الاجتماعي والحراك النشط والسعي نحو الإنجاز. إن أكبر مخاوف الإنسان تتمثل في موته، ورحيل من حوله، ولا يمكن لهذه المخاوف أن تفارقه إلا في أوقات الانشغال والانهماك، وإذا تأملنا محاولات العقل البشري التعامل مع هذه النقطة، لوجدنا أنفسنا أمام سياق واضح من السعي نحو التجاهل والتلافي، وهو ما يتماشى مع الطريقة التي يعمد إليها الكائن البشري في تفاعله مع المشاكل التي لا حل لها. فبعد الكثير من السيناريوهات التي يطرحها العقل البشري والعديد من التخيلات المتعلقة بالتلاشي والانقطاع، يُحل الأمر بالتخلي عن الفكرة والانتقال إلى

فكرة أبسط وأوضح، ومن الممكن للفرد أن يلجأ إلى المتع المختلفة كوسيلة للتخدير والتقليل من التفكير بالمخاطر التي تحيط به والأفكار المدمرة التي تجابهه بين الحين والآخر، وعلى رأسها الموت بكل تأكيد. إنه يرقد في العقل اللاواعي للكائن البشري، ولا يفكر فيه المرء باستمرار، بل تتصاعد انبعاثاته بين الحين والآخر خاصة في أوقات الفراغ، لتقحم الفرد في بيئة متأصلة من التفكير العميق، وهو ما يمثل إحدى الركائز الرئيسية للحلقات المفرغة التي لا يستطيع العقل التخلص منها أو حل مشاكلها بصورة قاطعة. إن عملية انتهاء الحياة البشرية محاطة بالضباب والغموض، وهي بمثابة الانقطاع الذي يصعب فهمه أو إدراك أبعاده، وتشير بصورة مباشرة إلى غياب القدرة على ممارسة الأنشطة الحيوية وتلاشي الوظائف الجسدية المختلفة. كثيرا ما يتأمل الإنسان إنجازاته إذا وُجدت، ويتعمق في استدعاء نتائج مجهوداته، ويتعجب من اختفاء كل شيء بمجرد موته، وتلاشي كل أثر له بمجرد مفارقته للعالم، وقد رصدت سيمون دي بوفوار هذه الحالة في إحدى كتاباتها حينما عبرت عن الحزن الغامر الذي ينتابها كلما فكرت في تلاشيها ورحيلها بعد كل ما درسته من لوحات فنية، وكل ما استمعت إليه من موسيقي، وكل ما

قرأته من كتب ساعدتها على تشكيل منظومتها الفكرية والثقافية الزاخرة. لكننا علي علم بأن السرمدية وهم لا يُدرك، والخلود مطلب لا يُنال، والكمال للإله وحده، ولا يمثل البشر سوي بعض الكائنات الصغيرة والقادرة علي إدراك حجم جهلها كلما شملتها الحكمة وتغلغلت بين ثنايا عقولها، وهو ما تثبته الرؤية السليمة للأمور. ولا يمكننا أن ننظر إلى الحياة البشرية ضمن الإطار المثمر إلا بالاعتماد على المنظومة التي يضعها الدين ويحث البشر علي التفاعل معها حرصا على إدراك الجانب المشرق من الآخرة، وغالبا ما تتطلب هذه البيئة قدرا كبيرا من الروحانية وصراعا شرسا مع المادية التي يدعو إليها العالم بصورة مستمرة خاصة كلما تقدم إلى الأمام. يري إبيقور أن الموت لا يمثل أمرا سيئا على الإطلاق لأن الخروج من الوجود يخلق كيانا لا يعرف التجارب السيئة ولا يمتلك أي درجة من الندم أو الألم، وفي نفس الوقت يري سقراط وأفلاطون وأرسطو أن الخوف من الموت خطأ كبير لأنه ليس بالأمر السيء بل يُعد انتقالا إلى العالم الروحاني المُفعم بالعدالة والجمال. لم يدرك الإنسان البدائي أن الموت أمر حتمي بالنسبة إلى الكائن البشري لكنه تعامل معه على أنه شر يلحق بالمرء ويقضي عليه، ومع

الوقت تطورت الرؤية التي تبناها الإنسان فيما يخص موضوع الموت، ليصل في النهاية إلى إدراك حقيقته المتمثلة في حتمية شموله للكيان الفردي والقضاء عليه، وكونه سياقا طبيعيا للجسد البشري الذي تشمله الشيخوخة في سن ما ويسيطر عليه العجز بصورة لا يمكن تجنبها أو الهروب منها. وقد تنوعت الآراء الفلسفية فيما يخص موضوعه دون الوصول إلي مغزى واضح أو نتيجة مؤكدة، حيث يري الفيلسوف الروماني ابكتيتوس أنه ليس هناك شر في الكون، حتي الموت يتحول في النهاية إلي خير يخدم الطبيعة، بينما يري سقراط أن الموت يشبه النوم الذي لا تتخلله الأحلام ويمثل رحلة إلي موضع آخر، ويعبر أفلاطون عنه واصفا إياه بالعملية المحررة التي تسمح بتحرر النفس من الجسد، وقد عبر الكثيرون عن ما تتعرض إليه الروح بعد الموت بصور مختلفة، فمنهم من آمن بفكرة الخلود، ومنهم من أكد علي فكرة تناسخ الأرواح، ومنهم من ذهب إلي فكرة التلاشي التام، وقد عبر الإسلام عن الموت دون إفصاح مباشر لكنه أكد علي فكرة الحساب ووجود الجنة والنار وانتقال الروح إلي العالم الآخر، وقد وضح أن الإيمان بالغيبيات أمر أساسي والعمل من أجله شأن الحكماء والعقلاء. يقول إسخيلوس "شتاء وعناء

هي حياة الإنسان وما من وجود للخلاص والسلام، ويقينا هناك حياة أفضل تحفها البركة والقداسة، لكنها حُجبت في رحم الغيوم والظلام، وهكذا فإننا نتشبث يائسين بروائع هذا العالم الخداعة، لا لشيء إلا لأننا لا نعرف حياة أخري". ويعتبر شوبنهاور الموت الهدف الحقيقي للحياة البشرية ويري أن قصر الحياة يمثل أفضل صفاتها، وقد عبر الكثير من الفلاسفة عن هذه الصورة مرارا وتكرارا، ومن بينهم كيركجورد المعروف بفلسفته الوجودية المتشعبة. وإذا نظرنا إلى عملية الانقطاع نظرة عميقة ومتأملة، لوجدنا أنفسنا أمام حالة من الانقسام الفكري الواضح، حيث أنها من الممكن أن تأخذ العديد من السياقات المرتبطة بالبعد الميتافيزيقي أو الماورائيات أو المذاهب المؤمنة بالتلاشي التام أو الفكر المتعلق بتناسخ الأرواح أو الفكر الديني الرشيد، والذي يمثل الحكمة والمنطق بصورة واضحة ويؤكد على كلماته معتمدا على الكثير من الدلالات والعلامات القادرة على إقناع العقل الحكيم والساعي نحو الخلاص وجني ثمرات الأعمال الطيبة. لم تعرف البشرية صاحبا مثيرا للجدل ولصيقا بها منذ مهدها إلى حاضرها مثل الموت، قابله كل إنسان، وأدركه كل كيان، ولا مهرب منه أو مفر من استقباله، ولا يمكننا أن

نعامله ضمن الإطار المادي الخام، فلا يصح أن ننظر إلى هذا العالم المادي على أنه الحياة الوحيدة لأن حينها تكون نظرتنا قاصرة للغاية وبعيدة كل البعد عن الصواب، لكن من المنطقي أن نتعامل مع الإطار الذي نعيشه ضمن منظومة الحس والروح، حرصا على تحقيق التآلف التام مع موضوع الموت. فإذا نظرنا إليه ضمن الإطار المادي الخالص، فحينها نكون قد أقحمنا أنفسنا في بيئة مبنية على الهروب منه ومحاولة تجنبه بكل الطرق الممكنة، وهو ما يمثل أمرا مستحيلا على الصعيد التطبيقي، وإذا أدرجنا أنفسنا في بيئة مبنية على التآلف بين المادية والروحانية، فحينها نكون قد فعلنا الصواب وتمكنا من بلوغ الحياة السليمة المبنية على التصالح والتقبل. ولا يُخلق البعد الروحاني إلا بالإيمان بوجود عالم آخر، والسعي نحو العمل من أجله، والحرص على التعامل مع الموت على أنه خير ينقل الإنسان من العالم المادي المرهق والشرس إلى العالم الروحاني المُفعم بالرغبات المُحققة والرغائب المُدركة. يمثل الموت حالة من الغياب عن التجربة الواعية بشكل تام، ويزحف تجاه الإنسان منذ ولادته، ويجبر المرء على الانخراط في حالة من السعي نحو خلق المعني ومقاومة العبث قبل أن يحل الأجل. وإذا تعاملنا معه خارج السياق

الروحاني، وجدنا أنفسنا أمام وحش جاسر لا يمكننا التآلف معه أو الوصول إلى حلول جزئية ومطمئنة عند التفكير بإمكانية حلوله. إن علمنا بوجود أفعي الموت أمر خطير وقادر على تدمير التجربة الحياتية بصورة كاملة إذا أمعنا التفكير فيه، خاصة إذا كان الفرد ممن لا يجيدون فن التجاهل ولا يعرفون شيئا عنه. وبواسطة الموت تتحول الحياة البشرية إلى تجربة عابرة لا تعرف استقرارا ولا تدرك ثبوتا، وهو ما يخلق بدوره بيئة عارضة يعيشها الكائن البشري ضمن إطار مبني على محاولة التقبل والتآلف. إن الفناء يخلق بصورة مباشرة بيئة من التساؤل الوجودي والمتعلق بحجم الإنجاز وأهمية الوجود وكم الثمرات التي ينعم بها المرء بعد مجهوداته العديدة والساعية نحو بلوغ الاستقرار. لكن الإنسان لا يبلغ الاستقرار أبدا، ولا تُتاح له الفرصة لذلك، وكثيرا ما يحاول أن يربط استقراره بعوامل دنيوية خالصة ويسعي جاهدا نحو خلق العديد من نقاط الاستقرار الوهمية، ويساعده المجتمع في تشكيلها، وكلما بلغ بعضها أدرك حقيقتها وفهم أبعادها وتحقق من تجاوز الخيالات لبيئة الواقع وغياب القدرة على بلوغ الاستقرار الذي إذا تحقق اكتسب الصفة اللحظية وغاب عنه الدوام والثبات. إن غياب القدرة على بلوغ

السرمدية يشير بصورة مباشرة إلى عجز الكائن البشري عن الاحتفاظ بممتلكاته والإبقاء على نتائج مجهوداته، وإذا رغب المرء في الخلود فحينها يكون مغفلا لأنه يطلب ما لا يُدرك ويسعي نحو ما لا يُفهم، ولا يمكنه الخروج من هذا المأزق إلا بالاعتماد على التجاهل أو اللجوء إلى البعد الديني، والذي يمثل الحل الأمثل والأفضل لهذه الإشكالية. تري الكثير من الآراء أن الإنسان بعد موته يعود إلي أصله المعروف بالخلود واللانهائية، ورغم تكهنات الفلاسفة وكثرة المعتقدات فيما يخص شأن الموت، يبقي موضوعه سرا لا يمكن إدراكه أو التعرف علي جنباته، وقد رصدت الكثير من النظريات الفلسفية والوجودية والتي تسعي نحو المقارنة بين العالم الذي نعيشه والعالم الذي ننتقل إليه بعد الموت، لكنني لم أتفق مع معظمها ولذلك لم أدرجها في كتابي، عزيزي القارئ، لأنني أري أن -تشكيل نظريات تحمل قدرا من التأكد وادعاء المعرفة حول أمر يستحيل للعقل البشري أن يدرك شيئا عنه- يُعد تبجحا وبعدا عن الموضوعية، ولذلك اكتفيت بالقليل من النظريات المؤكدة لفكرة التكهن لا التأكد. نحن علي علم بفكرة انتزاع الروح من الجسد البشري وانتقالها إلى العالم الآخر دون أن ندرك ماهية الانتقال أو نتعرف على طبيعة الروح

أو نعرف شيئا محسوسا عن البيئة الجديدة المُدركة، والتي تمثل الموضع الذي يتم الانتقال إليه والحلول فيه؛ لأن الأمر ببساطة يعود إلى الإله وحده ولا يمكن لإنسان أن يدرك سره كنتيجة لبنيته البشرية العاجزة، والتي لا تمنحه إمكانية الوصول إلى ذلك. إن التعامل مع الموت ضمن السياق الميتافيزيقي يختلف بصورة تامة عن توظيفه ضمن الإطار الديني، لأن الميتافيزيقا تتعامل مع ما يكمن وراء الطبيعة ضمن منظومة فكرية تنبع بصورة مباشرة من آراء فردية ونظريات ذاتية وتطرح الكثير من الأفكار حول الأمور غير المحسوسة ضمن سياق عشوائي ومُفرغ من الرموز والمعتقدات، لكن البعد الديني يتعامل مع ما لا يُدرك على المستوي الحسي ضمن إطار مبني على الرموز والمعتقدات والنظام المرتبط بقادة وأفكار مُستمدة من الممارسات والتجارب والدلالات. ومن المعروف أن الأفكار الوجودية والعبثية قادرة على التسلل بين ثنايا البيئة الميتافيزيقية بسهولة لأن البعد الأنطولوجي يمثل ركنا من أركان الجانب الماورائي بصورة مباشرة، لكن الدين لا يسمح بتسلل العبث بين ثناياه ويخلق المعني عبر ربط الحياة البشرية بالعالم الآخر، واعتمادا على ذلك من الممكن أن نصنع للموت بعدا إيجابيا ومفيدا وقادرا على خلق قيمة

للوجود الإنساني الذي من الممكن لآثاره أن تتلاشي بسهولة من العالم الدنيوي في لمح البصر. يتحدث الفارابي في إحدى كتاباته عن فهم الناس لمعني المفارقة التي تحصل بين النفس والجسد، فيقول أن هناك من يري أن الإنسان لا يكون حكيما إلا بمفارقة النفس للبدن، وهناك من يري أن مغادرة النفس للجسد شر كبير، بينما يري الرجل نفسه أن عملية المفارقة ليست مفارقة بالمكان أو تلف بالبدن والنفس بل حالة من عدم احتياج النفس في قوامها إلي الجسد المادي وعزوفها عن طلب خدماته، ويوضح أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتيسر له الرجوع إلي المصدر الذي ينشأ منه شريطة أن ينبذ العالم المادي ويتبع تعاليم الشريعة حيث أنه وُهب العقل وبه يرقي إلي عالم العقل. إن ما يثير الضجة حقا حول قضية الموت يتمثل في عدم قدرة المرء على إدراك نقطة التلاشي لأنه مبني في قوامه على عنصر المفاجأة، والغريب في الأمر أن هذه الضجة لا يمكن أن تزول حتى ولو وظفنا مفهوم الفناء في السياق الافتراضي الذي يسمح للمرء بالتعرف على موعد نهايته، وهو ما يدفعنا إلى التسليم بالحقيقة المتمثلة في أن إثارة الضجة حول موضوع الموت أمر لا بديل عنه ولا يمكن التخلص منه أو الفرار من تبعاته. في كتابه "الوجود والزمن"،

يري هيدجر أن الموت يعطي جدية للوجود الإنساني، ويوضح أنه ليس مجرد مشكلة لكنه سر، ويؤكد على أن هناك فرقا كبيرا بين المشكلة والسر، فالأولي شيء يلتقي به المرء من الخارج فيقف حائلا دون تقدمه، أما السر فهو شيء يتلبس بنا ويشملنا بغموضه فلا يسمح لنا بأن نتأمله من الخارج لأنه مرتبط بنا ونحن مندمجون مع بيئته المفعمة بالضباب.

وكنتيجة لذلك من الممكن لنا أن نتعامل مع موضوع الفناء ضمن الإطار المبني على التصالح والتآلف لأن عملية التقبل نفسها تُعد مؤشرا واضحا لمدي النضج الفكري الذي يتمتع به المرء، ومن خلال النظرة الموضوعية والواقعية للأمور يمكننا بسهولة أن نتعامل مع مفهوم التلاشي ضمن السياق الإيجابي والذي يسمح لنا بالسعي نحو الإنجاز دون الوقوف كثيرا عند موضوع الموت. ولا شك في كوننا عاجزين عن أن نحيا بلا قلق لأن التوتر الإنساني بمثابة الوقود الذي يحركنا وربما يمثل البرهان الوحيد على وجودنا وقد يعبر عن آثارنا التي نتركها على مدار الطريق.

وتتجلي صوره عبر التمعن في أفكار الوجود والفناء والتلاشي، وقد يشعر المرء ببطلان أفعاله التي يقدم عليها بصورة مطردة لأنه يشعر باستمرار بإمكانية شمول الموت لكيانه واحتمالية حلوله في أي لحظة دون

سابق إنذار، وقد تتفاقم هذه الحالة إذا لم يكن متقبلا لفكرة الموت ومتصالحا مع وجودها. وعلينا أن ندرك حقيقة الذات الواعية والتي تمتلك القدرة على منح كل شيء قيمته الفعلية وفي نفس الوقت لا تصبح فريسة لخداع المشاغل اليومية أبدا، لكنها قادرة على التفاعل مع كل المثيرات ضمن الإطار الإيجابي والفعال، وهو ما يتمثل في تحقيق التوازن بين الأعباء الحياتية والتأملات الوجودية ومحاولة خلق المعني بالاعتماد على المفهوم الديني المفعم بالروحانية وتجاوز الجسد البشري. لا يختلف الإنسان كثيرا عن علبة القهوة فيما يخص فكرة الصلاحية، فلكل منهما موعد انتهاء، ورغم ذلك قد تتفوق القهوة عليه بصورة واضحة لأن تاريخ انتهائها مُدرج على علبتها بينما يعيش المرء دون أن يدرك متي تكون نهايته، ورغم ذلك قد يكون هذا في صالحه ومن أجل خيره إذا نظرنا إلى الموضوع ضمن إطار أكثر واقعية. تُستخدم الجمجمة عالميا كرمز صريح للموت، ويعده البشر بمثابة المصيبة الكبرى التي لا حل لها ولا هروب منها، حيث يعجز المرء عن إيجاد حل واضح لهذه المشكلة، ونجاحه في تجاوز كل الظروف القاسية وتفادي كافة الأمراض العارمة لا يساعده في الهروب من الفناء الحتمي كنتيجة لكبر سنه، وهو ما يمكننا

تلخيصه باللجوء إلى مفهوم الشيخوخة. كثيرا ما يرمز البشر إلي المفهوم الوجودي ضمن بيئة ثلاثية مبنية على الجمع بين الوردة والجمجمة والساعة الرملية، حيث تشير الأولي إلى المفهوم الشامل للحياة وتعبر الثانية عن الموت والفناء وترصد الثالثة فكرة الوقت ومروره والتهامه لكل شيء، وقد عبر فيليب دي شامبين عن هذه الحالة من خلال إحدى لوحاته الفنية المعروفة. إن الزمن يلتهم كل شيء وكثيرا ما تحدث أوفيد موظفا كلماته ضمن هذا السياق، وربما يبتلع كل شيء كي لا يبقي في نهاية المطاف شيء يُذكر وحينها يسهل الرحيل دون معاناة أو عبء لا يُحتمل. وإذا نظرنا إلى الأمر ضمن سياق عميق، لوجدنا أنفسنا أمام حالة من التساوي بين البشر فيما يخص وجهات نظرهم المتعلقة بالموت، وتشمل هذه الحالة الفلاسفة منهم والعاديين. إن الأمر يحمل سياقا نظريا بصورة واضحة لأن الجانب التطبيقي مُفتقد في هذه الحالة، وإذا وُجد فحينها نكون أمام بيئة مُدعاة تفتقر إلى المصداقية ويُعد التجاوب معها نوعا من الهزلية والعبث. إن السعي الدائم نحو اللذة يعيق من فكرة التقبل لموضوع الموت، والعمل الدؤوب نحو بلوغ الاستقرار يحمل قدرا من السذاجة لأن الموت ينتظر المرء ليفتك به دون إنذار مُسبق. لكن

طريق اللذة مغلق وفقا لهجسياس الذي يري أنها لا تتحقق خالصة وأنها تُعطل بصورة محسوسة عبر الوجود التراكمي للآلام مما يؤدي إلى خلق لحظات بسيطة من السعادة، وهو ما يجعل من طلب اللذة عبثا وتناقضا لأنها تخلف الألم دائما ولا حل لهذا المأزق سوي بالتخلص منها ولا يتحقق الخلاص إلا بالموت. لكنني أري أن هذه الفلسفة مبنية في أساسها على كراهية الحياة، وهو ما لا أتفق معه بأي شكل من الأشكال، لكنني أري أن على المرء أن يتحرك عبر الطرق المختلفة للحياة ضمن إطار مفعم بالتفاؤل والبهجة دون أن ينسي الواقع أو يتجاهل حقيقة وجود الموت، وهو ما يدعو إليه الدين في حقيقة الأمر. ورجوعا إلي فكرة القهوة وتاريخ الصلاحية المُدرج علي علبتها، فمن الضروري أن أوضح أنها مُجردة من البيئة الحسية وخارجة عن المفهوم الواسع للعاطفة بتدرجاته التي لا حصر لها، لكن الإنسان كائن مبني علي التفاعل العاطفي ومرغم علي التجاوب مع العواطف البشرية وتحقيق التبادل الحسي، ولهذا يُعد موضوع الانتهاء بالنسبة إلي المرء أمرا مفعما بالكثير من المشاعر المتضاربة والتي تستحق الدراسة والتمعن، أما القهوة فإنها لا تشعر ولا يمكن التعامل معها إلا ضمن الإطار الجامد الذي لا يعرف وجودا محسوسا،

وهو ما يطرح سؤالا هاما فيما يخص هذا الشأن، ويتلخص محتواه في التساؤل حول إمكانية تعامل المرء مع الموت والرحيل ضمن إطار مُجرد من العواطف من عدمه. إن الإنسان عاجز عن التعامل مع قضية الموت ضمن إطار جامد، ولا يمكنه أن يعمد إلى التجاهل الكلي فيما يخص شأنه، وربما يصدر الموت انبعاثاته ضمن بيئة اللاوعي لتراود المرء مشاعر القلق دون إدراك فعلي لسبب انبثاقها. إن القلق الوجودي ينبع بصورة مباشرة من صراع الإنسان مع الزمان، فالحياة البشرية قصيرة والإنجازات المطلوبة عديدة، وما يحد من الاستمرارية يكمن في الموت وما يقف حائلا دون المضي إلى الأمام يرقد في فكرة الفناء. إن البعد الديني يمنح الروح بيئة الخلود ورغم ذلك ترتعد فرائص المرء كلما ذُكر الموت لأن البيئة الجديدة التي تشمله بعد فنائه بعيدة عن الإدراك وماهيتها مستعصية الفهم ومحاولة التعرف عليها يُعد أمرا منهكا وغير مألوف. ورجوعا إلى فكرة الوعي وغيابه، فمن الممكن أن نترجم مفهوم الموت ببساطة إلى حالة من غياب الوعي والتوقف التام عن الإدراك لكن بالرغم من ذلك قد نجد الكثير من المخلوقات غير الواعية والمُدرجة في نفس الوقت تحت بند الكائنات الحية مثل وحيدات الخلايا.

وربما تنظر المنظومة الدينية إلى فكرة فقدان الوعي ضمن إطار مختلف حيث تعمد إلى التأكيد على انتقال البشر من العالم المادي إلى العالم الروحاني، وهو ما يشير بصورة مباشرة إلى حالة جديدة من الوعي دون الإفصاح عن ماهيتها. إن الدين يصنف العالم الذي نعيشه على أنه اختبار وبالاعتماد عليه يحصل البشر علي درجاتهم وأماكنهم في العالم الآخر، وهو ما يجعل من الحياة الدنيوية جسرا للعبور لا مكانا للمكوث، ورغم عزوف الكثير من المجتمعات عن المفهوم الديني وابتعادها عن قواعده وإرشاداته واعتقادها الواهم في قدرتها على استجلاب أحوال الخلاص بدونه، إلا أنها عاجزة عن التخلص من حالة التوتر الوجودي والتي تلحق الحياة البشرية بالبيئة العابرة ضمن إطار إجباري لا يسمح باختيارات أو بدائل. لا تقترن بيئة الطمأنينة والأمان بفكرة الموت إلا عبر ربطها بالعالم الآخر والمعتقدات الدينية، وكلما كان المرء أكثر التزاما واتزانا وأملا في رحمة الإله نال قدرا كبيرا من الاطمئنان النفسي الداخلي، وأبحر في بحار الروحانية والنورانية الدافئة. إن السعادة لا تتحقق عبر الحياة المادية الخالصة، وقد تمثل الروحانية أعلي درجاتها وأكثرها رقيا، ولا يمكنني أن أنكر الحقيقة المتمثلة في كون العناصر الحسية والعواطف

والأفكار مصادرا للسعادة لكنها مصادر فانية ووقتية في أغلب الأحوال بينما تمثل الروح الخلود والبقاء. وإذا ربطنا الموت بالروح ضمن الإطار التطبيقي الجاد ولفظنا الجانب المادي بصورة كلية، وجدنا أنفسنا أمام بيئة مفعمة بالمرونة والسهولة وأصبح أمر الانتقال لينا وسلسا، لأننا حينها نكون قد تعاملنا مع الروح لا الجسد وركزنا على فكرة انتقالها لا فكرة تلاشي البدن. ورغم ذلك يصعب الأمر على الكثيرين، ولا يحب العديد من الناس رؤية حيواتهم تتلاشي، ولا يمكن للإنسان التكيف بسهولة مع الفكرة، وعندما يتأمل مسيرته المفعمة بالصراعات والنجاحات ينخرط في حالة من التعجب والذهول ويشعر ببطلان أفعاله، وتتصل هذه الحالة بالمادية الخالصة، والتي تعجز البشرية عن التخلص منها أو القضاء على جبروتها. إن النظرة الاسكاتولوجية إلى موضوع الموت تسمح لنا ببراح ومساحة واسعة ولا تعمد إلى بناء الحواجز أو الجدران، بينما ترتبط النظرة الماترياليستية بتشكيل العوائق وتضييق المساحات، ولا يمكننا أن ننجو دون الإيمان بالأولي والتعامل مع الثانية ضمن إطار إيجابي لكن جزئي، وبتحقيق التوازن وصبغ الحراك بحيوية الإبداع والأمل تنسجم القوي البشرية وتتكاتف من أجل

الوصول إلى بيئة الخلاص وبلوغ منظومة الأمن والأمان، والتي يسعي الكثيرون نحوها دون إدراك أي جزء منها. ترتبط حتمية النهاية بالواقع ولا تسمح لنا النظرة الموضوعية بتجاهل الحقيقة المتمثلة في ضرورة الفناء، وعندما نتأمل معا شروق الشمس وغروبها نجد أنفسنا بصدد التعامل مع حالة رمزية واضحة حيث يعبر الشروق عن الولادة ويرمز الغروب إلى النهاية، وإذا نظرنا إلى كل أنواع الخير التي يمنحها القدر إيانا نظرة التعمق والتأمل لوجدنا أنفسنا أمام بيئة متذبذبة من المنح والحرمان والانقطاع والعطاء مجددا، وهو ما يرتبط بالاختبار الإلهي الذي يجهله البشر ولا يعلمون عنه شيئا لأنهم مفتقرون إلى النظرة الشاملة بصورة كلية. إن حالة المنح والانقطاع وتجدد العطاء بمثابة الرموز الصريحة للحياة والموت والبعث، حيث أننا بالمنح تجري الدماء في عروقنا ويشمل التفاؤل جنبات حياتنا وبالانقطاع تصيبنا الكآبة وتشملنا السلبية وبتجدد العطاء تنتعش أرواحنا وتُبعث في أذهاننا أفكار التفاؤل والإيجابية من جديد. إن قلق الموت الوجودي ينبع بصورة مباشرة من علم الكائن البشري بحتمية الموت وعدم القدرة على الفرار من حالة الانقطاع الفجائي، وقد أدرك البشر عملية الموت منذ آلاف السنين

وتأملوا مفرداتها وحتميتها ودرسوا معدلاتها وارتفاعاتها وانخفاضاتها في المجتمعات المختلفة، وقد عجزوا عن تطوير أي وسيلة مضادة لها واعتمدوا بصورة مباشرة على التجاهل والإنكار. وقد ارتبطت حالة الإنكار بالسلوكيات البشرية المنحرفة ومثلت المصدر والمنبع لكل الأفكار العدوانية أو غير الأخلاقية، وقد تمثلت هذه الحالة في كسر القواعد وتجاوز الحدود والاحتفالات الماجنة وممارسة العنف والسعي وراء الثروة والقوة بجشع وشراهة. وقد تخلق التروما المرتبطة بالموت والصدمات المتعلقة برحيل البعض حالة من الرغبة في التدمير وكسر القواعد عند الفرد، لكنها في نفس الوقت قد تدخله في بيئة بنائية مفعمة بالحيوية والإبداع، وهو ما يختلف بين الأفراد وبعضهم البعض وفقا لطريقة تفاعلهم مع الموقف. ولقد شهدت عددا من الحالات التي انخرطت في ممارسة المجون أو إيذاء النفس أو الإلحاد كنتيجة لصدمة الموت، وقد صُبغت شخصياتهم بالعدوانية الخالصة وعجزوا عن الإفصاح بما يكمن بداخلهم وفشلوا في التعبير عن عواطفهم، فاتجهوا إلى السلبية وحادوا عن الطريق. وربما تمثل بداية فيلم "برام ستوكر دراكولا" للمخرج فرانسيس فورد كوبولا تعبيرا واضحا عن أحد

أشكال الصدمة الناجمة عن موت الأحبة، وهو ما يظهر عبر حالة التمرد على الرموز الدينية والتي تشمل الكونت دراكولا بعد انتحار حبيبته. وبالرغم من كونها حالة سينمائية مفعمة بالفنتازيا والخيال، إلا أنها معبرة عن بيئة واقعية قد تأخذ من السياق الحياتي نصيبا كبيرا عند البعض لتظهر على هيئة سلوك عدواني معارض للقواعد والمعتقدات. ولا يمكننا أن نبرر التصرفات الناجمة عن هذه الحالات أو أن نفهما بصورة واضحة، لكننا في الحقيقة أمام حالة من الرصد دون الرغبة في المزيد من الفحص. وإذا تأملنا حالة الثاناتوفوبيا المرتبطة بالخوف من الموت والرهاب المتعلق بكل ما يخصه، لوجدنا أنفسنا أمام بيئة مبنية على صراعات دفينة ومشاكل عميقة، حيث يري فرويد أن تعبير الناس عن خوفهم من الموت لا يرتبط في الحقيقة به لأن العقل اللاواعي لا يتعامل مع الإنكار أو مرور الزمان، لكنه يوضح أن عجزهم عن حل صراعات الطفولة أو التعبير عن عواطفهم يجعلهم في حالة من التحدث عن الموت والتوغل في تعبيرات الخوف والهلع المرتبطة به. وبعيدا عن كلمات الرجل، قد يأخذ الأمر العديد من السياقات المختلفة، والتي تحمل الكثير من التعقيدات والصلات الدفينة، فقد يمثل الموت تهديدا لاستمرارية

النشاط، وربما يمثل ضياعا للمجهودات المبذولة، ومن الممكن أن يشعر الفرد ببطلان أفعاله من جراء التفكير به، وعلى المستوي الديني قد يمثل مشكلة كبيرة لكبار الآثمين غير المؤمنين بالرحمة الإلهية. تري بعض الدراسات أن التدين قد يقلل من قلق الموت لأن المرء حينها يكون على استعداد للانتقال إلى العالم الآخر وما يرتبط به من رحمة ومغفرة ونعيم، وتوضح أن حضور الاجتماعات الدينية والاستماع إلى النصوص الدينية ومحاولة الالتزام بالتعاليم والإرشادات، كلها وسائل قادرة على تجنيب الشخص رهاب الموت. ومن الممكن للوساوس والقلق وصعوبات الحياة أن تكون مصادرا للإحساس باغتراب الذات والاضطراب النفسي والشعور باقتراب الرحيل، وربما تمثل نوبات الهلع واضطراب الكرب التالي للصدمة النفسية والخوف من الأمراض مصادرا مباشرة لهواجس الموت والثاناتوفوبيا. إن الثاناتوفوبيا تمثل خوفا تاما من كل ما هو ميت وكل ما يرتبط بالموت وهو ما يختلف بصورة مباشرة عن النيكروفيليا التي تعبر عن الميل تجاه كل ما هو ميت وتأخذ سياقات مختلفة وعديدة، من بينها السياق الجنسي المرتبط بالبارافيليا. إن الواقع الاجتماعي والحياتي مفعم بالصراعات والأعباء والتوقعات غير المنطقية

التي تطلقها الأدمغة وتسعي نحو تحويلها إلى واقع، لكن المرء مع الموقت يتقبل الواقع كما هو وبمجرد وصوله إلى مرحلة تكامل الذات "وفقا لتسمية إيريك إريكسون" ينخرط في حالة من التصالح مع الحياة ويتقبلها كما هي ويحاول أن يستخلص المعني من بين ثناياها، وإذا نظر إليها على أنها سلسلة من الفرص الضائعة فحينها يكون عاجزا عن الوصول إلي التكامل الذاتي المرغوب، وإذا نجح الإنسان في التجاوب مع النظرة الإيجابية فحينها يكون قادرا علي تلافي مخاوف الموت والتقليل من تأثيراته إلي حد كبير، وغالبا ما يحدث التكامل في فترة متأخرة من الحياة ضمن إطار منطقي وواقعي. إن الصراع بين الارتياح واليأس أمر أزلي لا مهرب منه، وقد تتجلي هذه الحالة في الكبر والعجز، لنجد أنفسنا أمام صنفين، أحدهما سعيد بالنتائج وراض عنها وعن كل ما حقق، والآخر مفعم باليأس والإحباط وغياب القدرة على التكيف والخوف من حلول الموت قبل بلوغ نقطة الاستقرار الداخلي والرضا التام. إن الوصول إلى مرحلة تكامل الذات يتطلب الحكمة والذكاء، وفي نفس الوقت يمثل الجانب الديني والسعي نحو الروحانية والإيمان بالفكر اللاهوتي الاسكاتولوجي طرقا مباشرة وسهلة لبلوغها. إن التهام الزمان

لكل شيء يجعل من الحياة بيئة تشبه الحلم ويخلق من الوجود بيئة مبنية على التعجب والتساؤل، ويحل الموت في النهاية ليقطع التسلسل الزمني واضعا حدا صريحا للحراك، لكنه في نفس الوقت يرسل الكثير من الرسائل إلي البشر وتتجلي صوره عبر العديد من المشاهد الحياتية، وقد تأخذ المخاوف بشأن حلوله سياقا نفسيا سلبيا بصورة واضحة، خاصة إذا كان الفرد محاطا بالكثير من المشاكل ومفعما بالصراعات الدفينة. وقد سُجلت الكثير من الأيديولوجيات المتعلقة بموضوع القلق من الموت، ورُصدت عبر الاعتماد على العديد من الطرق مثل التخيل وملء الاستبيانات واختبارات التحمل، ونجح النفسانيون في التعرف على ماهية الضغوط النفسية عند الكثير من الأفراد وسعوا نحو التعرف على حقيقة ارتباطها برهاب الموت من عدمه، وهو ما يمثل نوعا من التقدم الملحوظ فيما يخص هذا الشأن. إن التعامل مع قضية الموت يتطلب شخصية مفعمة بالقوة والروحانية والرضا والإيمان برحمة الإله، وهو ما تتطلبه الحياة أيضا بصورة مستمرة ودائمة.

الجنس والموت

إن الصراع الأزلي بين إيروس وثاناتوس أمر معروف ولا يمكن إنكاره أو تجاهل حقيقة وجوده، وبين الإيروسية والموت عماء الالتباس بين النور والعتمة، لا الحب والجنس يستوعبان الموت ولا الموت يستثنيهما، ورغم علمنا بحقيقة أنه لا مناص من أفعي الموت المتربصة إلا أننا دائما ما نحاول أن نتجاهل وجودها، وبواسطة إيروس نمضي إلى الأمام وننعم بالتلطيف والتهدئة قبل أن تُفعل قوي ثاناتوس التي لا مهرب منها ولا حل لها سوي التقبل والتسليم. في لوحته المعروفة "الليل"، يقدم فرديناند هودلر رصدا بارعا للصراع الأبدي بين الشهوة الجنسية والموت معتمدا على مفهوم التوازي ليظهر الوحدة بين الجانب الحسي الإيروتيكي والبعد التصويري الجلي، وفي نفس الوقت يعج عمله بالرمزية الباهرة والتي تعمل على التطرق إلي فظاعة انقضاض الموت علي الإنسان وتتعرض إلي سبعة أجساد راقدة تتباين أوضاعها بين الاستسلام الأخير المنهك للذة الجنسية والانكفاء علي حيوية الجسد المستوحد والتنائي عن الآخر والاستغراق في الرغبة بأبعادها المتشعبة، وفي الوقت عينه وأثناء الانهماك في استقبال اللذات بتأثير مباشر من غواية الليل، يفاجئ الموت المتشح بالسواد أحدهم ليأخذه إلي العالم

الآخر دون سابق إنذار. وفي لوحته "النهار"، نجد الغواية متمثلة في خمس عاريات تحيط بهن الطبيعة ويشملهن ضوء النهار الذي يوهمنا بإمكانية الإفلات من قبضة الموت، ومع البيئة المبنية على الضوء واللمسة الإيروسية المُستمدة من الجسد الأنثوي تظهر القدرة الوهمية على الإفلات من قبضة الليل الممثل للموت وننخدع بالأمان المصاحب للنهار، لكنه أمان مؤقت وعارض لأننا علي علم بحتمية التدهور وعدم قدرتنا على التخلص من سطوة ثاناتوس. يرتبط الموت بالطابع النيكروفيلي والميل إلى كل ما هو غير نابض بالحياة، وعندما يعجز المرء عن بلوغ الإرضاء العاطفي والجنسي بالشكل اللائق تتسلل إليه هواجس الموت وقد يرغب في التدمير من أجل التدمير وربما يرغب في تلاشي من لا يبادله الحب ويأمل في فناء نفسه في الوقت عينه. ففي الأسطورة اليونانية، يُحكي أن أورورا قد رأت سيفال حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرة يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال، فهامت به، ووقفت تعبده، وتروي من جماله، لكنه شاح بوجهه وأعرض عنها عندما حاولت أن تكلمه، فقررت ربة الفجر أن تنتقم منه ورمقته بعيني أفعي تود لو تنفث في صدره سمها فترديه، وقد نشرت

الظلام على عينيه والنسيان في قلبه وبات لا يملك من أمره شيئا، وقد انتحر في النهاية بعد مصرع بروكريس. إن السياق الذي أمامنا يحمل قدرا كبيرا من الحب والكراهية والصراع النفسي والرغبة في التدمير، وقد تحول ولع أورورا بسيفال إلى رغبة تدميرية خالصة عندما تجاهلها، فلم يحقق لها مرادها ولم يتجاوب مع متطلباتها العاطفية والشهوانية، فانتقمت منه ورغبت في القضاء عليه. من الممكن للإنسان أن ينخرط في حالة من الممارسات الجنسية العشوائية ورغم ذلك لا يحصل على ما يريد وربما يشمله التشتت والتدهور من جراء ذلك، لأنه غير قادر علي بلوغ المفهوم الإيروسي بالصورة الصحيحة. إن الإيروسية لا تشير إلى الجنس فحسب بل تمثل خليطا من الحب والرغبة والجنس، وهو ما يؤكد على أهمية العاطفة وضرورة السعي نحو تحقيق البيئة اللازمة لها، وغالبا ما تحتاج إلى الإخلاص التام وتوفير المناخ الضروري لذلك. إن الطاقة الإيروسية بمثابة القوة اللازمة لاستمرارية الحياة ويتمثل النقيض في طاقة الموت الممثلة للنهاية والفناء. إن طاقة الليبيدو مصاحبة لإيروس، وعبر الرغبة الجنسية يتحرك الإنسان إلى الأمام لكننا علي علم بأن الإطار الإيروسي مشروط في الكثير من المجتمعات ووفقا للعديد من الأديان

والمعتقدات، وحينها يُعد التخلص من هذه الشروط ضربا من التمرد والتقليل من شأن النفس. ورغم سطوة القوة الإيروسية وحيوية الليبيدو إلا أننا عاجزون عن التملص من الوحش الجاسر الذي يكمن في المورتيدو، ولا يمكن التخلص منه أو الهروب من تبعاته وهواجسه. إن الصراع بين إيروس وثاناتوس أو الليبيدو والمورتيدو أو الحياة والموت بمثابة الحركة والسكون أو النشاط والخمول أو التفاؤل والتشاؤم، ولا يمكننا أن نتجاهل هذه الحقيقة أبدا ولا يسعني إلا أن أخبرك، عزيزي القارئ، بالحقيقة المتمثلة في قيام الحياة البشرية على التفاعل الإنساني، والذي يمثل التبادل العاطفي والجنسي أقوي أشكاله وأكثر صوره حميمية وحماسة، وفي نفس الوقت قد نجد الكلمات عاجزة عن توضيح الصراع النفسي الذي يشهده أحد الطرفين حينما يغادره الطرف الآخر أو عندما يأخذه الموت إلى العالم المجهول. في واحد من أهم توصيفاته الأنثروبولوجية، يُعد الإنسان صانعا للأفكار، وغالبا ما تنبثق هذه الأفكار من الواقع الأنطولوجي والسياق الحياتي، وتمثل الإيروسية بسياقها العاطفي ومفهوما الجنسي الجزء الأكبر منها وفي نفس الوقت يرقد الموت في اللاوعي ملوحا لها عن بعد. وبالرغم من حديثنا عن

إيروس ضمن إطار أعمق مقارنة بكلماتنا عن ثاناتوس، ورغم الحقيقة المتمثلة في كونهما نقيضين لبعضهما البعض، إلا أنهما يتشاركان في الغموض، فكل منهما مُحاط بالضباب وينتج عن كليهما حالة من الأفكار المتبدلة والتقلبات غير المبررة بين الحين والآخر. إن إيروس ضروري وهام لكنه قد يكون مصدرا للشرور في الكثير من الأحيان، وهو ما ينطبق على ثاناتوس أيضا، فقد يكون مفيدا ومخلصا وقد يأخذ سياقا مفعما بالشر والهلاك ضمن إطار مختلف. إن الإنسان عاجز عن التفريق بين ما يفيده وما يضره في أغلب الأحيان، ومهما وصل إلي علم ومعرفة يظل جاهلا كما ولدته أمه ولا يمكنه أن يحقق الاستقرار، فلا يعلم الشرور التي يخفيها إيروس له، والتي قد تظهر مع الوقت بعد بيئة الأمن التي شملته في البدايات، وفي الوقت عينه يجهل طبيعة الموت ويجد نفسه عاجزا عن إدراك ماهيته والتعرف على حقيقة كونه خيرا أم شرا بالنسبة إلى كيانه وكينونته. إن الدراسة السيكولوجية الاستبطانية التي تميل إلى التساؤل عن أدق التفاصيل الصغيرة تخبرنا بأن الإنسان المتعفف على المستوي الجنسي هو الأكثر حكمة والأعلى مكانة لأنه لا يسمح لذاته بأن تعبث بنفسها وتضعف أمام شهواتها، لكنه يرضي غاياتها ضمن الإطار

القادر على استجلاب القيمة والاحترام، وفي نفس الوقت يعي معني الرغبة ويسمو بها ولا يتجاوب معها إلا بتوازن ورشاد. إن الرغبة تمثل الافتقار والحاجة والعوز، ولا يمكننا أن نتجاهلها لأنها هامة وضرورية لكننا في نفس الوقت مطالبون بأن نفهم أبعادها ونسيطر عليها ولا نسمح لها بأن تقودنا مثلما تُقاد الأنعام. إن إرضاء الرغبة الجنسية وإشباع الحاجات الإنسانية أمر مشروط، ومحاولة التخلص من هذه الشروط بمثابة التمرد والتبجح والتقليل من شأن النفس، وهو ما يؤكد ضرورة السعي نحو الإرضاء وتحقيقه وفقا لهذه الشروط حرصا على تحقيق الاستقرار النفسي والروحاني على المدي البعيد. وفي نفس الوقت، يُعد التعامل الرشيد مع موضوع الموت أمرا ضروريا وهاما ولا يمكن تحقيقه إلا من خلال السعي نحو خلق بيئة التقبل، والتي تحتاج إلى الروحانية والإيمان بالنظرة الاسكاتولوجية والإخلاص لها. إن النفس البشرية مضطربة بصورة دائمة وتتأرجح باستمرار بين إرادتين، تتمثل إحداهما في إرادة نقض التحريم وانتهاك القداسة وتتجسد الأخرى عبر إرادة الخضوع والانصياع للقداسة والتحريم. وفي نفس الوقت، تتحرك دون هوادة بين محاولة تجاهل هواجس الموت ورسالاته من جهة والخضوع لها

والاستسلام لاضطراباتها من جهة أخري. كتب جورج باطاي كثيرا عن الجسد وأظهره في كامل فظاعته ودناءته ووضح أنه لا يستمد المعني إلا عبر النظرة الإيروسية التي تمنحه وسام الجمال والنشوة. وفي إحدى كتاباته، نجده منغمسا في حالة من الوصف العميق لشخصية فتاة تتفلسف حول فكرة الجسد العاري وتتعجب من الجمع بين التعري ومقدمات الجنس وتوضح أن هذه الحالة لا تقتصر على المجتمعات المحافظة فحسب بل تمتد لتشمل أكثر المجتمعات تحررا مثل المجتمع الفرنسي. تدخل الحانة بجسدها شبه العاري وتحدث نفسها عن حالة التناقض بين الجسد والفرج ذي الرائحة الكريهة من جهة والهوس الجنسي المحيط بهما في الوقت عينه من جهة أخري، وتوضح الحقيقة المتمثلة في قدرة اللمسة الإيروسية على استجلاب أحوال الاهتمام بالجسد البشري عبر كشفها عن فخذيها وجذب الرجال نحوها بصورة لاحقة. إن الجسد البشري الذي ينخرط في الممارسات الجنسية هو نفسه الذي يتلاشى ويتحول إلى تراب مع الموت، ومن المؤكد قدرة لوحة "الليل" لهودلر على إظهار التأثير الصادم للموت وقدرته على محو المتع وتعكير صفو التجربة، وهو ما يظهر عبر الهجوم الفجائي لثاناتوس

المتشح بالسواد وإبراز قبضته القوية وسطوته البالغة على الشخص الموجود في مركز اللوحة. إننا علي علم بأن إيروس يشير إلى الجنس والحب والرغبة وفقا للمفهوم التقليدي بينما يشير إلى الحياة ويلازمه الليبيدو كمعبر عن الرغبة الجنسية وفقا لفرويد، وإذا كان ثاناتوس ذا سطوة بالغة وقوة لا يمكن تجنبها أو الفرار من تبعاتها، فحينها من الممكن أن ننظر إلى الإطار الإيروسي على أنه أشبه بالمخدر الذي يصحبنا في جولة من الغفلة والتخدير، وحينما نستيقظ من تأثيراته نجد أنفسنا أمام بيئة من الصراعات والمشاكل التي تحتاج إلى التجاوب والتعامل لا السكون والرضوخ. إن الحياة عبارة عن منظومة من الجولات التي تهدف في النهاية إلى بلوغ الموت والتخلص من الرغبات والرغائب وتحقيق الاستقرار التام، وعبر الليبيدو يلطف المرء من وطأة الصراع ويحاول التفاعل مع الوجود ضمن الإطار المتفائل. إن الغريزة الجنسية لا تمثل الرفيق الدائم للحياة فحسب لكنها في نفس الوقت تحمل الكثير من التشابهات معها، حيث تبدأ الرغبة الجنسية معتمدة على الرؤية والتخيلات وتنتهي بالأورجازم، والذي بعد بلوغه يعود المرء إلى البداية من جديد ضمن إطار متجدد ودون الحصول على شيء واضح المعالم في

نهاية المطاف، وهو ما يتوافق مع الحياة البشرية أيضا حيث أنها لا تمنح أحدا شيئا واضحا ومستقرا في النهاية، بعد كل هذه الصراعات والمجهودات. ورغم ذلك لا يمكننا أن نتجاهل اللذة التي تصاحب الرغبة والأمل وقد يكفينا جمال الرحلة وربما نستمتع بسياقها دون انتظار الهدف، لأن الهدف يمثل الاستقرار ونحن علي علم بأن الاستقرار التام لا يُدرك، حيث خلق الإله عز وجل البيئة العابرة للحياة البشرية عبر إدراج عناصر الاضطراب والصراع والتوتر بين ثناياها، ليجعل منها جسرا للعبور لا موطنا للسكون والخلود. إن البشر لا يحبون التحدث بكثرة عن ثاناتوس لأنه يخرجهم من غفلتهم ويشعرهم بالحزن والكآبة، ورغم ذلك قد يجد الفلاسفة لذة غير عادية في التحدث عنه والتنقل بين موضوعاته لأنه يمثل الهدف النهائي للحياة كما قلت مسبقا، وفي نفس الوقت يرتبط بالروحانية العميقة والتي تجعل من المادية المهلكة أمرا بلا قيمة ورغم ذلك يُعد الوصول إلى الروحانيات وجمالياتها أمرا شاقا وعسيرا، لكنه إذا بُلغ حلت البركات وشمل المرء السعادة في أوجها والمتعة في قمتها. وضمن إطار مختلف، يحب الناس التحدث عن الجنس ويعشقون التنقل بين موضوعات إيروس المختلفة والمتنوعة، ومن

الممكن بسهولة أن نضفي بيئة المساواة على المجتمعات المتحررة والمحافظة فيما يخص هذا الشأن، لأن الإنسان بطبيعته يحب الغفلة وبسذاجته يتفاعل مع مفرداتها دون هوادة. لكن البشر يلعبون ويعبثون تحت الفردوس المفقود، ومهما حققوا من أمنيات ووصلوا إلى أهداف، وجدوا أنفسهم عاجزين عن بلوغ الاستقرار وإدراك الطمأنينة الأبدية، لأنهم علي علم بأن الفردوس لا يُعوض ولا يمكن أن يحل محله بعض الماديات الفانية أو الرغبات المتطايرة أو الإرضاءات الوهمية. إن وجود برمجة في العقل البشري تخبر الذكر بضرورة أن يضاجع وتعلم الأنثى بضرورة أن تُضاجع بمثابة اللغز وما يلازمه من غموض، وفي نفس الوقت تعبر هواجس الموت ومكبوتات اللاشعور وكوامن اللاوعي عن حالة مشابهة من الغموض، ولا يمكننا أن نتجاهل الحقيقة المتمثلة في سطوة الموت وقوة تأثيراته مقارنة بالجنس، حيث أنه يلوح لنا عن بعد على طول الطريق بلا هوادة. إن الغموض موضوع مشترك بين الجنس والموت، فكل منهما محاط بالضباب ولا يمكننا أن نفهم الجنس بالصورة الكاملة رغم تقدم العلم، وما تزال الذروة الجنسية موضوعا مفتوحا للنقاش والجدال، ولا يمكننا أن نقترب من موضوع الموت إلا عبر

النظرة الدينية المؤمنة، وكل ما يبتعد عنها يُعد ضربا من التكهنات والنظريات. إن الغموض الذي يحمله الموت يضاهي حجم تأثيراته على الكيان البشري، وفي نفس الوقت من الممكن بسهولة ويسر أن نعتبره ركنا رئيسيا من أركان الاضطراب والتوتر، ولا يمكن أن يعيش الكائن البشري التجربة الأنطولوجية بالصورة المنطقية إلا عبر الترحيب به ضمن إطار إجباري مبني على المفاجأة ولا يعرف الاختيار. من المعروف أن النيكروفوبيا تمثل حالة من الخوف الشديد من الموت وكل ما يتعلق به من توابيت ومراسم جنائزية وجثث وغيرها، ومن الممكن أيضا أن تعبر عن الخوف من أرواح الموتى وإمكانية عودتها ومطاردتها للبشر ضمن إطار ثقافي وفني، ورغم ذلك من الممكن أن نجد حالة من الإقبال على الموت والسعي نحو بلوغه، وهو ما يتمثل بسهولة في فكرة الانتحار، والتي تعج بها الكثير من الأفلام والروايات والمسرحيات والأعمال الفنية، وقد تعرضها ضمن إطار غريب تبدأ أحداثه بقصة حب بين شاب وفتاة وتنتهي بانتحار أحدهما أو كل منهما، ومن الممكن أن نأخذ روميو وجولييت كخير مثال علي ذلك. إن غياب القدرة والظروف اللازمة لتحقيق بيئة الإرضاء العاطفي والجنسي بين فردين قد يؤدي بهما

إلى الرغبة في التلاشي، وهو ما يعبر عن اضطراب نفسي داخلي شديد وإحساس متأصل، تمثل عناصر العجز واليأس والضعف مفرداته. إن الإنسان يحاول أن يصل إلى المعني ويسعي جاهدا نحو إدراكه وبلوغه، ومن الممكن له أن يفهم الكثير من الأمور المحيطة به ورغم ذلك يجد نفسه عاجزا عن إدراك المعني في أي شيء، وهو ما يمثل التجربة الإنسانية المفعمة بالاضطراب والصراع، ولهذا يلجأ الكيان البشري إلي الحب والجنس ويحاول أن يجد فيهما ملاذه وملجأه، ورغم ذلك قد يخذلانه ويأخذانه إلى ما لم يكن في الحسبان. إن العلاقة بين الجنس والموت مفعمة بالغرابة والتعقيدات، فمن الممكن بسهولة، وفي أغلب الأحيان، أن نعاملهما ضمن إطار مبني على التناقض والصراع، وهو ما ذكرته آنفا، ورغم ذلك يمكننا أن نخلق حالة من التكيف والتوافق بينهما ضمن أطر محددة، وقد تعرض الفن إليهما بهذه الصورة في أكثر من مرة، حيث حولت الفنون التشكيلية رقصات الموت الكئيبة والخاصة بالحقبة القروسطية الدافئة إلي رقصات مفعمة بالشهوانية والإيروسية العميقة، وتطورت هذه الحالة لتشمل نكاح الموتي والنيكروفيليا الجنسية وبزوغ المفهوم السادي، فعندما ننظر إلي السادية ضمن إطار متعمق، نجد

أنفسنا أمام حالة من استقبال أحد الطرفين -الذكر أو الأنثى- للكثير من أنواع التعذيب والإهانة بواسطة الطرف الآخر وفي نفس الوقت نجده منغمسا في بيئة من الاستمتاع والحصول علي اللذة الجنسية، وهو ما يشير إلي الجمع بين الأذى والعنف المستمدين من الموت ضمن إطار عميق من جهة والغريزة الجنسية ضمن إطار واضح وصريح من جهة أخري، ورغم كونها حالة من حالات الخطل الجنسي -البارافيليا- إلا أنها موجودة في الكثير من المجتمعات ومن الممكن رصدها وتحليل جوانبها. ومن الضروري أن أشير إلى إلحاق الصفة السادية بالطرف المؤذي والصفة المازوخية أو المازوشية بالطرف الذي يتعرض إلى الضرر، وقد تمثل المازوشية حالة من الحالات البعيدة عن السلوك التقليدي والقليلة التي تشمل الأنثى وتسيطر عليها في أغلب الأحيان، بينما يتعرض الذكر إلى العديد من الأنواع والأصناف. وعندما نتعامل مع المفهوم الإيروسي بالنسبة إلي البعد العاطفي الخالص، فحينها من الممكن أن نلاحظ بيئة العواطف المضطربة التي يتعرض إليها الإنسان من قبل إيروس وثاناتوس، حيث تمثل العاطفة المُدرجة تحت بند إيروس حالة من التصاعد وارتفاع التوقعات والرغبة في تحويل التخيلات إلي واقع،

وهو ما يمثل نوعا من التوتر العاطفي الصريح والمباشر والمرتبط بالأمل، وفي نفس الوقت يتمثل الجانب العاطفي الخاص بثاناتوس في تعمق مشاعر الحزن من جراء فقدان الأحبة والمقربين، وقد تتطور الحالة لتصل إلي صدمة مؤثرة ذات أعراض جلية، كما ذكرت آنفا. إن العاطفة المضطربة للكيان البشري مُستمدة في الأساس من عناصر الحب والجنس والموت، وما يتعلق بهم من صراعات دفينة وحالات فقدان متكررة وتخيلات لم تُترجم إلى واقع وسيناريوهات مفقودة وضائعة، يشعر العقل البشري بحاجته الملحة إلى تحقيقها ورسم تفاصيلها كما يحب ويرغب.

ومن هنا يمكننا بسهولة أن نستشعر مصادر الصراع والتوتر، ورغم كونها عناصر الوجود ومنابعه وبدونها تستحيل الحياة وتأخذ شكلا مختلفا وبعيدا عن المألوف، إلا أنها قد تتحول إلى شر كبير ومصدر للاضطراب في نهاية المطاف. إن الغريزة الجنسية قد تحيل الإنسان إلي عبد لها، فترهقه وتصيبه بالعجز والفتور. إن المرء الذي يخضع للجنس خضوعا تاما يُعد أحمقا بكل ما تحمله الكلمة من معني، لأنه بهذه الصورة يكون قد فقد حريته وراحة باله. ومن الأفضل للإنسان أن يرضي الغرائز ضمن الإطار الوسطي المعتدل، فلا يهملها ولا يجعل منها

وحشا يسيطر عليه ويفني طاقاته وحيويته، وفي نفس الوقت يُعد التعامل الحكيم مع موضوع الجنس مؤشرا للتعبير عن الحكمة في التعامل مع الأمور الأخرى، والتي يمثل الموت واحدا منها. إن التعامل مع الموت ضمن إطار رشيد يتطلب الاعتماد على مبدأ التقبل، وهو ما ذكرته سابقا، لكنني أرغب في أن أضيف نقطة محورية إلى هذا النقاش عبر التأكيد على مفهوم "الروحانية"، حيث تمثل حالة الروحانية بيئة شاملة من التقبل والتكيف، لأنها قادرة على إقناع الفرد بالتغاضي عن المادة وتساعده، في نفس الوقت، في بلوغ عملية التكيف مع كل تغير ومتغير. ضمت الكثير من الطقوس الشيطانية الغريبة حالة من الجمع بين جسد أنثي عذراء من جهة والدماء والعنف والتعذيب من جهة أخري، حيث يضحي الممارسون لهذه الطقوس القائمة علي الخرافة بجسد الفتاة التي لم ينكحها ذكر من قبل، من أجل الحصول علي قوي شيطانية غريبة وفعالة، ورغم كونها فكرة مبنية علي الأوهام ولا تؤدي في النهاية إلي شيء واضح، إلا أنها قد تمت ممارستها بواسطة الكثير من القبائل وفي العديد من المجتمعات البدائية علي وجه الخصوص، ومن السهل أن نلاحظ عملية الدمج التي تعمد إليها هذه الحالة، حيث تبني فكرتها علي الجمع بين

حيوية النشاط الإيروسي وحالة الخصوبة المتمثلة في الجسد الأنثوي من جهة، وعملية التعذيب والهتك والانتهاك والتضحية والتخلص من الفتاة من جهة أخري. ورغم عملية التخلص من الجسد وانتهاكه في هذه الحالة، إلا أننا من الممكن بسهولة أن نرصد حالة الهوس التي كثيرا ما تسيطر على الذكور بالتحديد فيما يخص أجساد الإناث، خاصة الجميلات منهن، وهو ما يشير بصورة مباشرة إلى بيئة التناقضات والمفارقات التي تعج بها النفس البشرية. وقد ينظر الإنسان إلى الفرج على أنه شيء مقزز وقليل الشأن وقد يستخدم لفظته كوسيلة للسباب، لكنه في النهاية يحارب من أجله ويسعي نحو بلوغه، ولا يمكنني أن أعمد إلى التعميم في هذه الحالة، لكنني رغم ذلك أربطها بالكثيرين والكثيرات. في رواية "حقول لندن" للكاتب مارتن أميس، نجد كيث منغمسا في حالة من السعي الدائم نحو السيطرة على نيكولا ومضاجعتها، ورغم ذلك نجده في أحد المشاهد منخرطا في بيئة من الصراع المفعم بالكثير من السباب المتبادل بينهما، ليخبرها في نهاية المطاف أنها لن تمتلكه وتستحوذ على عقله بواسطة فرج لا قيمة له، وهو ما يعبر بصورة واضحة عن التناقض الصريح الذي يهيمن على الإنسان،

وكأنه لا يعرف ما يريد، وكأن الرغائب تقل قيمتها بعدما تُدرك، وكأنه يلاحق السراب أو يسير دون خارطة طريق في درب غامض مفعم بالفجوات والمفارقات. إنها حالة من التعبير عن الحياة، حيث يمثل الجنس ومفرداته بيئة رمزية قادرة على التعبير عن الكثير من الأمور الحياتية ضمن إطار مواز مفعم بالرموز المعبرة والغنية. إن بيئة الشغف التي تُفقد بعد تحقيق الإرضاءات، والتي من بينها الإرضاء العاطفي والجنسي، تمثل حالة من الاستعداد والتآلف مع فكرة التلاشي المرتبطة بالموت، لأن المرء مع الوقت قد يتحرر من كل ما يربطه ويحيله إلى أسير، وحينها يمكنه بسهولة أن يرتفع بروحانياته ويعلو بها ويستعد للرحيل، وإذا كان ذا خلفية دينية مفعمة بالروحانية والتصالح النفسي، فوقتها يجد نفسه منخرطا في بيئة مفعمة بالمرونة والاكتفاء والقدرة علي تقبل مفهوم الفناء. أثبتت التجربة البشرية أن كثرة التركيز على القيود الموضوعة على فكرة الجنس قد تؤدي إلى حالة من الهوس والوساوس، ومن الممكن لهذه الوساوس أن تتخذ أشكالا كثيرة وعديدة، وفي نفس الوقت تُعد كثرة التفكير في الفناء والموت والرحيل والتلاشي حلقة ذهنية لا تعرف نهاية ولا يمكننا أن نجد لها حلا واضحا. ولهذا من الصواب أن يتم

تجاهلها من قبل الفرد كلما راودته. نظرت الكثير من الثقافات والحضارات إلي "المرأة الغريبة" علي أنها شيطان يجب تجنبه والابتعاد عنه، وانبثقت هذه الأفكار من المنظومة الدينية التي تحذر من الوقوع في الرزيلة وتدعو في نفس الوقت الفاسقين إلي سرعة التوبة والعودة إلي طريق الإله، لكن الدين لم ينظر إلي المرأة علي أنها شيطان بالصورة الفعلية بل تطرق إليها ضمن إطار عميق يرمز إلي الفتنة والوسوسة، حيث أنه يساوي بين الجنسين ولا يقلل من شأن أحدهما، وإذا كانت عملية الوصف قد اتخذت مسارا غريبا علي المستوي التطبيقي، فمن المؤكد أن تكون هذه الحالة نتاجا مباشرا للفكر الضيق المنبثق من الفرد العاجز عن إدراك المعني الديني العميق والتعرف عليه بالشكل الصحيح. وقد تُعامل المرأة ضمن هذا النطاق على المستوي الفني والثقافي، حيث أظهرت الكثير من الأعمال الفنية والفكرية المرأة متشحة برداء أحمر ويمتد من رأسها قرنا شيطان، وكأنه قد ظهر إلى العلن متخذا من هيئة الأنثى كيانا له، وغالبا ما تكون هذه الحالة التجسيدية ذات طابع جنسي واضح، وفي نفس الوقت تدرج الكثير من الموضوعات والأفكار داخل الإطار السردي مثل موضوعات الموت والفردوس والجحيم والعالم

الآخر، وهو ما يؤدي في النهاية إلى استحضار بيئة رمزية من العيار الثقيل. يعبر اللون الأحمر عن الشعور بالذنب والخطيئة والغضب، ويرتبط بالجنس والدم والعنف، ويتطرق في النهاية إلى موضوع الموت، ورغم ذلك من الممكن أن تختلف بيئة الرمزية التي تخصه تبعا للمعتقدات الخاصة بكل مجتمع وثقافة. أما الرداء، فغالبا ما يكون ذا طابع شهواني ومحفزا للإثارة والشهوة ومصدرا للفتنة، وغالبا ما تمثل الفتنة موضوعا رئيسيا للنقاش ضمن السياق الخاص بهذه الأعمال، ومن الممكن بسهولة أن نأخذ من فيلم "المسحور" مثالا معبرا عن هذه الحالة، حيث يظهر الشيطان للبطل علي هيئة امرأة جميلة تعقد معه صفقة ذات طبيعة غريبة وغامضة، وفي نفس الوقت يأخذ العمل من الطابع الشهواني مصدرا للسياق السردي، ويتطرق إلي موضوعات الفتنة والشهوة والرغبات والرغائب والصراعات الحياتية والفردوس والجحيم ضمن إطار كوميدي مفعم بالسخرية والإثارة، وهو ما يمثل تعبيرا واضحا عن عملية الجمع بين الأنثى وفكرة الشيطان في الفن والثقافة، لأن بيئة الفتنة موضوع مشترك وواضح في كلتا الحالتين. إن عملية شيطنة الأنثى موضوع مثير للجدل، ولا يمكننا أن ننظر إليها على

هذه الهيئة بأي شكل من الأشكال، وقد وضحت آنفا أن الدين قد تعرض إلى هذه الصورة لكن ضمن سياق رمزي وتحذيري، لا يقلل من شأنها بل يحترمها ويربط بين مجهوداتها كأم وأخت وزوجة وابنة من جهة وولوجها الجنة من جهة أخري، وقد اتخذت هذه الحالة الكثير من السياقات المختلفة، وأظهرت العديد من التوجهات والاختلافات بين المجتمعات والثقافات المتنوعة على مدار التاريخ. إن الفتنة الجنسية قد ترهق الشخص وتؤدي به إلى الهلاك، ومن الممكن للنشاط الجنسي العشوائي أن يكون سببا مباشرا للكثير من المشكلات، والتي قد تتعقد بصورة متدرجة وغريبة منتهية بالعديد من الجرائم كالقتل على سبيل المثال، وهو ما يسمح لنا في هذه الحالة أن نعامل الجنس كطريق مباشر للموت والرحيل، وفي نفس الوقت يأخذ بين طيات هذه البيئة سياقا يجعل منه مصدرا للشرور لا منبعا للخير أو مهدئا للنفس. وعبر إطار مختلف، من الممكن بسهولة أن يُوظف النشاط الجنسي بالصورة الصحيحة داخل الإطار السليم والسوي، مما يؤدي في النهاية إلى استجلاب أحوال الاطمئنان والوصول إلى الروحانية التي قد تساعد الفرد في التكيف مع النقيض المتمثل في الموت. حظيت فكرة "الموت

والعذراء" بحالة مكثفة من التجسيد والرصد عبر العقود وظهرت في الكثير من اللوحات الفنية المعبرة عن احتضان الموت لجسد شابة صغيرة، ولن أتطرق إلي لوحة إيجون شيلي الخاصة بهذا الشأن، لأنه قد اعتاد رسم النساء علي هيئة أشباح أو أجساد منهكة، لكنني أرغب في ذكر لوحة هانز بالدونج الراصدة لفتاة عارية ناهد، ينبض جسدها بالحيوية وتتساقط الدموع من عينيها بينما يحيط بها الموت مُجسدا علي هيئة هيكل عظمي غريب، حيث تعبر هذه الحالة عن انقضاض ثاناتوس ودرئه لحيوية إيروس ونشاطه، فلا مناص من ترحيب الفتاة به ولا مهرب من استسلامها لجبروته. وقد رصد الفنان الألماني هذه الحالة في أكثر من عمل فني وبصور مختلفة مفعمة بالغرابة والجروتيسكية في الكثير من الأحيان. في العديد من الأعمال الفنية لتاكاتو ياماموتو، نجد أنفسنا أمام بيئة قائمة على الدمج بين الجنس والموت والعنف، حيث يرصد الشهوانية والعنصر الجنسي ضمن إطار سوداوي يخيم الموت على جوانبه وأبعاده، لكنه لا يهتم باستخدام الجسد البشري للتعبير عن الحيوية أو النشاط بنفس القدر الذي يوليه من اهتمام تجاه رصد موضوع الموت وجوانب الديستوبيا والعوالم السفلية، وهو ما يظهر بصورة

واضحة عبر أعماله المختلفة. إن أعمال الفنانين الراصدة لموضوع الموت وسطوته تعبر عن حالة من الذعر وعدم القدرة على تقبل فكرة الفناء، ورغم كلماتي السابقة التي عمدت إلى التأكيد على أهمية الترحيب بثاناتوس وتحقيق التآلف معه قدر المستطاع، إلا أنه من الضروري أن أؤكد على حقيقة الحالة وأنها لا تمثل ترحيبا تقليديا بأي شكل من الأشكال، وربما تمثل نوعا من الترحيب الإجباري، وقد نستخدم لفظة "ترحيب" من أجل التلطيف والتقليل من وطأة الانقطاع، لكنها في الحقيقة بيئة من الاستسلام الذي يحتاج إلى المفهوم الروحاني حتى يصبح صحيا ومثمرا وهادئا. في الأسطورة الإغريقية، يُحكي أن أورفيوس قد حزن حزنا شديدا لفقدانه لحبيبته يوريديس التي ماتت من جراء عضة مفاجئة نجمت عن أفعي سامة، وقد قرر النزول إلى العالم السفلي أو عالم الأموات بهدف استردادها والتخلص من الظلام الذي حل على قلبه وشمله بعد رحيلها. وقد هبط بالفعل إلى عالم هادس وسُمح له باستردادها شريطة ألا ينظر إلى الوراء أثناء صعوده إلى العالم الدنيوي من جديد، وحينها تكون حبيبته خلفه تقتفي آثار أقدامه وتتبعه كما يتبع الواهم السراب. وقد تحرك أورفيوس مفعما بالحيوية والتفاؤل والأمل

بعدما استرد محبوبته، وأخذ يغني كما تغني البلابل والعنادل في عنان السماء، لكنه أخطأ في النهاية وأحس بالخديعة، فنظر إلى الوراء كي يتأكد من وجودها خلفه، وحينها هبطت إلى العالم السفلي وفقدها من جديد. وبعد عودته من العالم المظلم وفقدانه الثاني لحبيبته، اعتزل الحياة وغرق في الكآبة، وتخلي عن المتع ومن بينها عشق النساء، وانطلق يتجول وحيدا وحزينا، وحينما أعرض عن إغراءات بعض النسوة المفعمات بالشهوانية والرغبات الجنسية الزائدة، رجمنه بالحجارة وبعثرن أجزاء جسده، وفي الوقت عينه كان منغمسا في إطلاق الصرخات والمناداة باسم حبيبته المفتقدة يوريديس. إن العالم السفلي الذي يرأسه هادس ويستقبل الأرواح التي تُقبض بواسطة ثاناتوس، قد رحب بالحبيبين، وها هو أورفيوس يلحق بمحبوبته يوريديس منتقلا معها إلى عالم الخفايا والظلام. تعبر هذه القصة الرمزية عن الصراع الداخلي والسعي نحو استرداد مصادر الإيروسية المفقودة ومحاولة الوقوف في وجه ثاناتوس الذي لا مناص منه في نهاية المطاف. إن أورفيوس قد هاجم الموت بعد مهاجمته لحبيبته وحاول أن يستردها بشتى الطرق لكنه فشل في النهاية بسبب حركة غير مبررة وبعيدة كل البعد عن المنطق. قتل الموت الأمل

وصبغ حيوية أورفيوس وإيروسيته بصبغة الكآبة والفقدان، ولو نظرنا إلى الخاتمة نظرة التأمل والتعمق، لأدركنا الحقيقة المتمثلة في وصول الحبيبين إلى حالة من التآلف والالتقاء، لكنها لا تأخذ من الحياة موضعا لها بل يمثل الموت موطنها وغلافها الذي يحيط بها ويشملها بالغموض والضباب. إن "الحياة والإيروسية" تستمدان كيانهما من وجود النقيض المتمثل في "الموت وثاناتوس"، ورغم قسوة الموت وجبروته إلا إنه ضروري كي يمكننا من فهم الحياة وإدراك مفهوم الاستمرارية المرتبط بها، ولو تأملنا معا النشاط العاطفي والجنسي، لوجدنا أنفسنا أمام بيئة دؤوبة من السعي نحو مجابهة الموت والعمل على مقاومته والتخلص من هواجسه، ورغم كل هذه المحاولات، تبقي سطوة الموت أمرا ظاهرا لا يمكن تجاهله أو التخلص منه، ولا مهرب من حلوله على الكيان الإنساني في وقت ما. فبالرغم من كل المحاولات التي قام بها أورفيوس، إلا إنه قد عجز في النهاية عن الوقوف أمام جبروت الموت، وقد شمله هو وحبيبته بصورة غريبة وغامضة ضمن إطار مبني على الصراع والنزاع. لكن الحقيقة تخبرنا بأن الإنسان تكمن بداخله غريزة الموت مثلما تكمن غريزة الحياة، ورغم تأصل غريزة "الحياة والبقاء" وبزوغها علي

الساحة، إلا إن المرء قد تلاعبه غريزة "الموت والفناء" بين الحين والآخر، وقد يسعي نحوها كوسيلة للهروب من الصراع الوجودي أو الأزمات التي يعجز عن حلها أو الفرار من تبعاتها، وفي حالة أورفيوس، ربما يكون قد رحب بالموت وكان فرحا بانتقاله إلي العالم الذي تقطنه محبوبته، وبهذه الكيفية يكون قد تخلص من عذابات الفقدان وصرخات الحسرة ومشاعر الحنين التي لم تجد إرضاء يليق بها بعد رحيل المحبوبة يوريديس. من الممكن أن ننظر إلى آراء الفلاسفة التي تري بأننا قد خُلقنا لنموت ضمن إطار مختلف، حيث أنه من المتاح لنا أن نصنف هذه الأيديولوجيات تحت بند الإيمان بالنظرة الثاناتوسية الخالصة، والتي تري أنه من الأفضل أن نرحب بثاناتوس وتبعاته دون محاولة مجابهته أو السعي نحو الوقوف أمام جبروته. ولا يمكننا أن ننكر الحقيقة المتمثلة في حتمية الموت والفناء، وتتشارك كل الحيوات البشرية في هذه النهاية الموحدة والمعروفة، لكن الاختلاف يكمن في المسار المؤدي إليها، فمن البشر من يعيش حياته بين المخدرات والخمور والنهود ومنهم من يرغب في تحقيق ذاته والوصول إلي هدف مشرق وبراق، ورغم سطوة الثدي وسيطرته علي عقل المراهق الصغير لفترة من الزمان واعتقاده بأنه يمثل

الخلاص والملاذ، إلا أن الراشدين علي علم بالحقيقة المتمثلة في عدم قدرة النشاط الجنسي علي الصمود في مواجهة الصراع الوجودي والفناء الحتمي، وعجز الإنسان عن التخلص من صراعات الأزمة الوجودية وكل ما يتعلق بها من اضطرابات وتوترات، ولهذا يمثل التجاهل الحل ويجسد التقبل الملاذ وتعبر الروحانية عن الخلاص. ورغم ذلك، لا بأس من استجلاب بيئة التهدئة بين الحين والآخر ضمن الإطار المسموح والمرغوب، ولا حياة بلا أمل وسعي دؤوب نحو الإنجاز، حيث يمثل التفاؤل المسار الصحيح للمضي إلى الأمام، وعبر التجاوب المتوازن مع إيروس تمر الحياة وتثمر الأشجار ويطفو الأمل وتُقطف الثمار. إن الثدي الذي يرضع الطفل الصغير هو نفسه الذي يضمر لاحقا، ورغم منح الأم ابنها الرضيع ما ينفعه وتعبير هذه الحالة عن الخصوبة ونبض الحياة وتحول الصغير إلي شاب كبير مع الوقت، إلا أنه لا مناص من التلف والهتك والفقدان. إن الأم تقدم إلى طفلها الصغير قطرات اللبن مستمتعة بإدراك اللحظة الراهنة المرتبطة بقدرتها على منح الرعاية والعطاء وإحساسها بوجودها وشعورها بحيوية ذلك، لكنها في نفس الوقت لا تدرك الصورة ضمن الإطار الأكبر المتمثل في تمكن التلاشي

الحتمي منها ومن طفلها على المدى البعيد، وربما تكون علي علم مُسبق بأن هذه اللحظة المؤثرة بالنسبة إليها لا تمثل شيئا هاما بالنسبة إلي عمر الكون السحيق، لكنها تدرك ببساطة لحظات التطور وتتجاهل بحكمة تصورات التدهور، وهو ما يمثل الحراك البشري المتفائل بوجه عام. إن الإيروسية بمفهومها العاطفي والجنسي وكيانها المتفائل والآمل قادرة على استجلاب أحوال التخدير والتجاهل، وفي نفس الوقت تمنح البشر الحيوية والقدرة على الإبداع، لكن حالة التخدير لا مهرب من انقطاعها وبيئة الهروب لا مناص من مغادرتها في وقت من الأوقات، وهو ما يرصده الواقع وتعبر عنه التجربة البشرية الممتدة. تشتهر بعض بلدان أوروبا بسعي الذكور الذين نال منهم الشيب نحو مواعدة الشابات الصغيرات بهدف استرداد مجد الإيروسية المفقود وحيوية النشاط المفتقدة، ورغم كثرة الحالات وانتشارها مؤخرا، إلا أنها في أغلب الأحيان تقوم علي التبادل المنفعي، والذي يعتمد بصورة مباشرة علي بيع الفتاة لجسدها مقابل بعض المال، حيث تذهب الصغيرة مع العجوز إلي شقته الفخمة وتقضي وقتا ممتعا هناك وتأكل وتشرب وتفعل كل ما تحب مقابل أن تمنحه جسدها لبعض الوقت كل يوم، ورغم كارثية المشهد

وحجم الخبل الذي يحويه، إلا أنه يحمل قدرا من الرمزية يمكننا استخلاص جوانبه وأبعاده بسهولة ويسر، حيث يعبر الشيب عن الموت والرحيل والانتهاء بينما تجسد الصغيرة الحيوية والنشاط والقوة، وهو ما يفتقده العجوز ويعتقد أنه قادر علي استرداد حيويته السابقة عبر بعض المضاجعات الفارغة والتي لا تحمل سوي بعض الاحتكاكات غير البناءة والبعيدة كل البعد عن السياق الصحيح. إن الإنسان يسكنه ملائكة وشياطين مما يجعله عاجزا عن إدراك الكمال والمثالية المرجوة، وكنتيجة لذلك يقضي حياته متأرجحا بين جانبي الخير والشر، ولا يمكنه أن ينعم بالطمأنينة والأمان دون الاستعانة بالمفهوم الروحاني والعمل على استجلاب أحواله ومفرداته.

<u>انتهي</u>

تمت مراجعة المعلومات
تمت مراجعة النصوص المختلفة
بواسطة دار عرفان للنشر

الإيروسية والثاناتوسية .. معتز عرفان
دار عرفان للنشر .. مؤسسة معتز عرفان للثقافة والفنون



معتز عرفان

مؤلف وفيلسوف

في هذا الكتاب، يعتمد عرفان علي المضامير العلمية والفلسفية والنفسية والفنية والأدبية محاولا الوصول إلي صورة مقربة ومفعمة بالعلم والمعرفة والدقة فيما يخص الغريزة الجنسية عند الكائن البشري. كما يتطرق إلي موضوعات الحياة والموت والدين والتجربة الوجودية والإنسان والزنا والدعارة والتعبير الفني والنفس البشرية وغيرها من الموضوعات. إنه عمل موسوعي قادر علي التطرق إلي العديد من الموضوعات المحورية، وفي نفس الوقت جامع بين المنهج البحثي والانسيابية الفكرية بصورة جديدة وغير مسبوقة.

يعتبر الكثير من النقاد كتاب "الإيروسية والثاناتوسية" العمل الأكثر أهمية في مسيرة المؤلف والفيلسوف "معتز عرفان".

دار عرفان للنشر
مؤسسة معتز عرفان للثقافة و الفنون